

www.hiramagazine.com

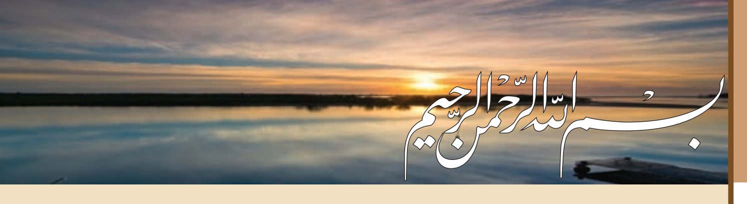
العدد الثاني عشر / السنة الثالثة / (يوليو - سبتمبر) ٢٠٠٨

محمد

يا نور محمد ﷺ! يا هاتِكَ الليل والديجور،
أَنِرْ قلب دنيانا العجوز، واغمر عقلها البئيس،
واسجر تنور روحها الهامد المستكين،
وبفيض ضوئك أقم للبشرية مناراً،
إليه تبوء... وبه تستنير!

* * *





الافتتاحية

الفكر الحي

لو شئنا أن نصف الأستاذ الكبير فتح الله كولن بكلمتين اثنتين لا نتجاوزهما لقلنا: إنه "طاقة حركية" تتفجر من خلال كتاباته. فكلمات مقالاته تكاد تتواثب من أماكنها فوق السطور وتتشكل على الأرض حركة ونشاطاً وعملاً، وإنك لتحسب وأنت تقرؤه وكأن الحياة الموّارة قد انشقت عنه في التو واللحظة. فما أسرع أن تتلمس شيئا من ذاته المشتعلة والمطلة من خلال سطوره وهي تكاد تلفح الأوجه الجامدة وهي تناديك: هيا إلى العمل... فالفكر لا يظلّ حياً إلا إذا تلبّس بالحياة وصار جزءاً منها. يتعلم منها ويعلمها، ويكافح وينتصر مرة ويخفق أخرى. فاقتران الفكر بالعمل هو الذي يبقيه حيا ومتألقا دائما وأبداً... هذا هو مجمل ما يريدنا الأستاذ أن نتعلمه من مقاله الموسوم "الحركية والفكر".

أما الدكتور الشاهد البوشيخي رائد المدرسة المصطلحية في المغرب العربي فإن مقاله الموسوم "الهدى المنهاجي في القرآن الكريم" يكاد يكون مرآة هذا الفكر الذي يلتزم به ويدعو إليه، وهو منهج كما يراه يجنبنا الزلل والخطأ إذا كتبنا أو قرأنا. وعن إرهاصات "العلم الحديث" وقدراته التنبؤية عن عالم الغيب فهو المحور الذي يدور عليه مقال الأستاذ الجليل محمد سعيد رمضان البوطي. أما عن "فاعلية الأسماء الإلهية الحسنى" وأثرها في الكون والحياة، وفاعليتها العظيمة في التضرع والدعاء والاستغاثة فقد تضمنها مقال الأستاذ الدكتور "فريد الأنصاري". و"النورسي" هذا المفكر المعجون بالحزن والألم والوجع فإن الدكتور "محمد كنان ميغا" يشخص "فلسفته في اللذة والألم". وعن الإحباط واليأس الذي قاد كثيرا من المفكرين في الغرب إلى الانتحار أو حافّات الانتحار فقد تضمنه مقال الدكتور عماد الدين خليل الموسوم "إنهم ينتحرون".

أنْ يكون الإنسان متديّناً لا يعني ذلك أنه يقف من الحضارة موقفاً سلبيا، بل على العكس من ذلك، لأن التحضر بمجمله يثري الفكر الإيماني بالمزيد من الشواهد على عظمة الوجود الإلهي. فالتواصل بين الاثنين نجده في مقال الدكتور عبد الرزاق وورقية. والأستاذ الدكتور "خالد الصمدي" يرسم لنا خارطة فكرية تعيننا على بناء ثقافتنا الإسلامية وكيفية تقديمها للآخرين في مقاله المتميز "كيف نبني ثقافتنا الإسلامية؟". وعن قصة الحياة وبداياتها الأولى بين مقولات الإيمان والنظريات العلمية نجدها مسطرة في مقال الأستاذ جمال الحوشبي.

وختاما فإن الأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس يكتب لنا واصفا إشراقات مجلة "حراء" في اليمن السعيد، وعن الحفل التعريفي بهذه المجلة التي بدأت تشق طريقها بثقة إلى العالم العربي الإسلامي، وما لاقته من حفاوة وتكريم من رجالات الفكر والأدب في هذه البلاد، وعن رسالتها العالمية التي لاقت من المحتفلين الإعجاب والاستحسان.. ■

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

العدد الثاني عشر – السنة الثالثة (يوليو – سبتمبر) ٢٠٠٨

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:
Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş.
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
أنس أركنه
mergene@hiramagazine.com

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير المسؤول
هانئ رسلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير
أشرف أونن
eonen@hiramagazine.com

المخرج الفني
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Emniyet Mah. Huzur Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +20222631551
الهاتف الجوال: +20165523088
جمهورية مصر العربية
sub@hiramagazine.com

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

المحتويات



عناوين الاتصال:

EGYPT
Daralnile
7 Albaramka Street . From Tayaran Street. Nasr City, Cairo – Egypt
Tel: +20 16 55 230 88
sukru@hiramagazine.com

SAUDI ARABIA
AL Watania Distribution
الوطنية للتوزيع
P.O.BOX 8454 Riyadh Zip Code: 11671 Saudia
Tel: +966 1 4871414
saudia@hiramagazine.com

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution, d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300
Casablanca / Morocco
Tel: +212 22 24 92 00
morocco@hiramagazine.com

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي، أمام الجامعة القديمة
Tel: +967 1 440144
yemen@hiramagazine.com

USA
The Light, Inc.
26 Worlds Fair Dr. Unit C Somerset, 08873
New Jersey, USA
Tel:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211
usa@hiramagazine.com

ALGERIA
algeria@hiramagazine.com

SUDAN
Tel: +249918248388
sudan@hiramagazine.com

JORDAN
jordan@hiramagazine.com

SYRIA
syria@hiramagazine.com



الحركية والفكر

فتح الله گولن*

نحن نلخص خط كفاحنا كورثة الأرض بكلمتي الحركية والفكر. وإن وجودنا الحقيقي لا يتم إلا عبر الحركية والفكر... حركية وفكر قادران على تغيير الذات والآخرين. والواقع أن كل كيان ثمرة حركة ومجموعة من المبادئ والتصورات، كما أن بقاءه مرتبط باستمرار هذه الحركة وتلك التصورات.

وإن أهم شيء وأشده ضرورة في حياتنا هو الحركية. فمن الضروري أن نتحرك على الدوام في ظروف قاهرة، نضع أنفسنا تحت ثقلها بأنفسنا، لنحمل فوق ظهورنا واجبات ونفتح صدورنا أمام معضلات... الحركية المستمرة والفكر المستمر، ومهما ضحينا في هذا السبيل. فإن لم نتحرك وفقا لهويتنا الذاتية الأصيلة، فسندخل في تأثير الدوامات الفكرية والبرنامجية لأمواج هجمات الآخرين وأعمالهم الحركية، ونضطر إلى تمثل فصول حركاتهم.

إن السكون الدائم يعني إهمال التدخل فيما يحدث حولنا، وترك المشاركة في التكوينات المحيطة بنا، والاستسلام للذوبان الذاتي رغماً عن أنفسنا كقطعة جليد سقطت في الماء. وتعاجزُنا عن حماية جزيئاتنا الذاتية في هذا الذوبان، يعني التسليم لأي تكوين أو حادث يناقض ذاتنا ويضاد جوهرنا. إذن ينبغي على

الذين يبرمجون لبقاء الـــذات أن يطلبوه بكل رغبـــاتهم وميولهم وقلوبهم ووجدانهـــم وحركاتهم وأفكارهم، لأن حضور الوجود يقتضي توتراً تاماً في الجوهر الإنساني. نعم، يقتضي الوجود بداية، ثم إدامة الوجود، ذراع الإنسان وجناحه وقلبه ورأسه. ونحن إن لم نضحّ منذ الآن بقلوبنا ورؤوســنا من أجل وجودنا في الغد، فسيطلبها منا الآخرون بوقاحة في مكان وزمان لا نفع لنا فيه قطعاً.

إن أهم مميزات الحركية الإســلامية والفكر الإسلامي هو أنْ يكون وجودُنا ذاتَنا، وأن نجعل مطالبنا مطالب العالم ورغباته، ثم نجد مجرى حركة لنا في عموم الوجود ونســيل بذاتنا في مجرانا الخاص ضمن مجريات عموم الكائنات، (ويعني الحفاظ على خطنا الخاص إذ نتكامل مع الكائنات كلهــا). ومن لا يرتبط باعتبار عالمه الخاص بعموم الوجود، ولا يحــس بعلاقاته مع الكائنات، وينكفئ في روابط مطالبه الفرديــة والجزئية في مواجهة الحقائق الشاملة للعالم، فإنه يقطع أواصر ذاته عن الوجود كله، ويجردها، ويسقطها في حبس الأنانية القاتل. ولا شبهة في أن الباعث على انقطاع الإنســان عن الوجود وبقائه وحيداً بذاته، هو الشهوات البدنية والصراعات الواقعة في أطراف الجســمانية. وكل سلوان فــارغ الفحــوى وذي بُعد وهمي، يرجع في جــذوره إلى تلك الشـــهوات البدنية والصراعات الجسمانية. إن دنيا رجل الحركية والفكر الحقيقي، وسعادته في دنياه، ذات تلونات عالمية الشــمول مؤطــرة بالأبد. فكأن دنياه لا بداية لها ولا نهاية، أو أنها تتجاوز تصوراتنا. ولذلك، نتذكر أمثال أولئك حينما نقول "الإنســان الســعيد". وهل تسمى "سعادة" بحق ســعادة لها نهاية أو بداية؟

إن الحركية -من مقترب أفضل- هــو احتضان الإنســان للوجود كله بأصدق وأخلص القرارات، والتدقيق فيه، والســير مــن خلال المعابر التي فيه إلى اللانهاية، ثم إحلال دنيــاه في فَلَك غاية الخلقة الحقيقية مستخدماً الطاقة الكلية لذكائه وإرادته بالسر والقوة التي اكتسبهما من اللامتناهي.

إن الفكر عمل حركــي داخلي. فالفكر المنظم والهادف هو التســاؤل من الكائنات بذاتها عن المجاهيل التي تجابهنا في وتيرة الوجود، والاســتماع إلى جوابها عنها، أو بتصريح آخر، فعالية الشعور الباحث عن الحقيقة في لسان كل شيء وفي كل مكان، بتأسيس قرابة بين ذاته والوجود كله.

إن روح الإنســان يلتف ويتآلف مع العالم بالفكر وفي ظل الفكر، فيتعمق باســتمرار في ذاته وداخل نفسه.. ويمزق قوالب عقل المعاش الضيقة ليفيض خارجاً، ويتحرر من الأوهــام المنسلة إلى أغوار الروح.. يتحرر، فيوائم الحقائق التي لا تُزيغ ولا تُضل.

وبعبارة أخرى، الفكر هو تفريغ داخل الإنسان من أجل أن يتسع المكان للتجارب الميتافيزيقية في أعماق داخله بالذات. هذا هو أول مدارج الفكر؛ وأما المدرج الأخير في ذاك السلم فهو الفكر المتحرك.

إن حركية حياتنـــا الدعوية والفكرية هي حياتنـــا الروحية، في حـــالٍ لا يمكن به فصل حياتنـــا الروحية عن فكرنـــا الديني. فقد تحققَ كل صراع من أجل الوجود والحضور -خاصة شعبنا- باللجوء إلى المعنى والروح الإسلامية.. وظهر بارزا بالأعماق التي يختزنها في ذاته كلما توجه إلى الإســلام، كما يتسامق البذر إلى الســنبلة متى ما استقر في صدر التراب، وكما يتفتح البرعم حين يســتقبل النور. هذا التوجه وبلوغ الذات، يحقق تنامياً وتوسعاً في الإمكانات المكنونة في كنهه، وضمانا لوجوده وبقائه. وكما يتحقق بالعبادة والذكر والفكر تقاســم القلب والروح لمستوى الحيــاة في عالمه الداخلــي الذاتي، فإن احتضانــه للوجود كله، واســتماعه إليه "هــو" في وجيب نبضاته، وإحساســه بــه "هــو" في كل كلية لعقله، يرتبط بشــعور العبادة وجهد الذكر والفكر عنــده. فمن البديهة أن كل تصــرف للمؤمن الحقيقي عبــادة، وكل فكر منه مراقبةٌ، وكل كلام لــه مناجاةٌ وملحمةُ معرفة، وكل مشاهدة منه للوجود تطلّع وتدقيق، ثم كل مناســبة بأهلٍ وطنه شــفقةٌ رحمانية. وإن بلوغ هذا المعيــار من الرحمانية مرتبط بالانفتاح على الأحاســيس، فالمنطق والمحاكمة، ثم من المنطق والمحاكمــة إلى الإلهام فالواردات الإلهية. وبإفادة أخرى، من العسير الارتقاء إلى هذه الذروة ما لم تمرر التجربة من مصفاة العقل، وما لم يُسلّم العقل نفسه للفطنة العظمى وما لم يقع المنطق في حال الحب عينه، وما لم ينقلب الحب أيضاً إلى العشق الإلهي. فإن تحقق، فبهذا النظر يكون العلم بُعداً من أبعاد الدين وخادماً لــه، والعقلُ طيفَ نور يصل به الإلهام أينما يشاء، والمكتسبات التجريبية منشــوراً يعكس روح الوجود... ويصدح كل شيء بصوت أناشــيد المعرفة والمحبة والذوق الروحاني.

ولئن كان إنســاننا -ببعض جماعاته- يحمل المشاعر والفكر بعينه، ويتقاسم -أو هو في وضع تقاسم- الحالة النفسية بعينها، ثم لا يتصرف تصرفاً إيجابياً بقدر ما ينبغي ورغماً عن هذه المفاصل المشــتركة الواســعة، بل قد يقع أحيانا في انحرافات وسلبيات، فالجدير هو أن ينبش عن السبب في غياب الإيمان بمعناه الحقيقي. فتصرفــات المؤمن الحق إيمانية التلــون دوماً، وحركاته تدور في فَلَك الفكر أبداً، مهما كان القالب الذي يحصره، ومهما كانت المضادات التي يسحب إليها.

لذلك، ينبغي أن يستشعر وارثو الأرض الذين يخططون لإقامة

عالم المستقبل، نوعَ العالم الذي يريدون إقامته، ونوع الجواهر اللازم استعمالها في إعمار هذا العالم.. حتى لا يضطروا هم بأنفسهم إلى هدم ما بنوه بأيديهم من قبل. إن جذور المعنى وأصول الأسس لألف سنة من حياتنا –نحن– معلومة ومعروفة. وعلى مهندسي مستقبل الضياء أن يجهدوا في استخدام قوتهم الفكرية –إلى جانب دوافعهم الحركية– من أجل أن تنصت المحركات التاريخية التي تنشئ بها حياتنا الدينية والوطنية إلى صوت الإسلام كرة أخرى، وتلتقط زاوية نظره وتجس نبضه وتستمع إلى وجيبه، بالاستفادة القصوى من المرونة والامتداد العميق والعالمية في إعلاء بناء هذه المحركات مع الحفاظ على الكتاب والسنة وصوافي اجتهادات السلف الصالح، وحسب مدارك العصر وأسلوبه. ذلك، حتى لا يعيشوا حياة البرزخ في طريق الانبعاث بعد الموت! وكل هذا يرتبط أولاً وقبل كل شيء بالابتعاد عن أثقال النفسانية ودوافعها كافة، والانفتاح على الروحانية، والنظر إلى الدنيا والعلم بها كصالة انتظار إلى الأخرى. وبإفادة أخرى، يتحقق هذا بتعميق الكمية في عباداتنا إلى النوعية، وبإطلاق النقص الحاصل في رياضية الأوراد والأذكار إلى الآفاق اللامتناهية بالنية والخلوصية، وبالمعرفة والاعتبار واليقين في دعواتنا ومناجاتنا وبثنا إلى الذات الإلهية الأقرب إلينا من أنفسنا. ولا يعي هذا المعنى إلا الذين يحسون الصلاة كالطائف في المعراج، ويستلذون من أداء الزكاة كحافظ الوديعة أو موظف التوزيع، ويعيشون الحج كندوة عالمية لتداول معضلات العالم الإسلامي، وفي أرضية يرصدون فيها نورانية ومهابة الروح والقلب والأبعاد الأخروية.

إن الشعور بكل هذه والإحساس بها، فمعايشتها في الحياة، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بأطباء المعنويات القادرين على تشخيص بؤسنا الداخلي والخارجي ومداواته، وبمرشدين صادقين مشدودين إلى الأخرويات من غير انقطاع. أولئك المرشدون الذين يمتد عالمهم الفكري من المادة إلى المعنى، ومن الفيزياء إلى الميتافيزيقا، ومن الفلسفة إلى التصوف. فهؤلاء كانوا وراء أيام العمران المديدة حتى اليوم، وسيكون هؤلاء ممثلين لحركات الإعمار والإحياء الآتية غداً. وسيتحقق هذا التمثيل باستنباط نظريات حقوقية جديدة من مصدري الكتاب والسنة لمعالجة المستحدثات والتوقعات المستقبلية، وتزيين أفكارهم بآراء العالم الجديد، وتطوير متلقيات فنية طازجة تلائم عالمية الإسلام وتركز روح الأمة وشعورها في بؤر الإسلام وترتبط بأحاسيس التجريد، وعجن ثقافتنا الذاتية المستوعبة للدين والدنيا والموروثة من خزائن ألف سنة متصلة. فإن تمثيلا في هذا المستوى لقادر في زمن قصير على تحقيق تصدرنا للأمم الأخرى في العلم والفلسفة والفن وحياتنا الدينية، وتقويم وحدات الحياة كلها على الطريقة المثلى، وجعْلِ أبنائنا المتشردين المنفلتين في الشوارع –سواء الدارسين منهم أو الأميين– رجالَ الغد في الفكر والصنعة والمعرفة والفن. فتتنفس الأزقة والشوارع هواء العرفان وكأنها أركان المدارس، وتصير السجون أوكاراً للعلم، وتزين الخمائلُ البيوتَ كزوايا الجنة. وفي كل مكان يسير الدين مع العلم يداً بيد، وينشر احتضان الإيمان والعقل ثماره في كل صوب، وينبت ويزدهي المستقبل في صدر الأماني والآمال والعزم بألوان وأفنان لا يضاهيها خيال "المدن الفاضلة"، وتنشر التلفزيونات والراديوات والصحف والمجلات في جو الفضاء الفيوضات والبركة والنور، ويرتشف الكوثر كل قلب سائح في ربيع الجنة هذا ما خلا الذي كالرميم المتخلف من التاريخ.

سيولد هذا التكون الجديد من قيمنا التاريخية وحضارتنا وثقافتنا ورومانسيتنا... وستظهر هذه الحركة من الحالة الروحية لعصور مستمرة تحت الغبن والقهر والظلم من جهة، ومن جهة أخرى، من حماسة قلبنا المتشبع بالإيمان والمتحفز دوماً والمستعد للانطلاق في كل آن.

إن تحقيق هذه الرسالة الحيوية مرتبط قبل كل شيء بتحريك دبيب الأرواح الصدئة في هذه الأرضية الصدئة. ويبدو أن المجهود الدؤوب منذ خمسين أو ستين سنة قد نجح في زحزحة الصعاب. فيمكننا أن نئن مع الشاعر المُعَذَّب، إذ يقول: "اضرب بالمعول يا فرهاد، قد مضى الكثير وبقي القليل..." التحرك الأول هو تحرك الروح، وهو يلقي السلام علينا اليوم أينما مضينا كأقواس الترحيب المقامة من أكاليل السماء النورانية، بنعومة السكينة ودفء غيمة الربيع. فلقد اقترب موعد احتضانه لوطن المظلومين والمغبونين والمقهورين كله، وصب وابل حنينه الرحيم زخاً زخاً.

وكأن القوة –اليوم– قد انصهرت في قالب الحق واستسلمت له بعد أن ذاب معظمها. نعم، في وجود القوة حكمة... فلا يمكن حل مسائل كثيرة من غيرها. ولئن كان ضرر –وأيما ضرر– في القوة المنفصمة عن الحق والمنطلقة معاندة له، فإننا نحسب القوة المتحدة بالحق حقاً بعينه. والجرأة المنبثقة من توحد القوة بالحق حامية للمظلوم لا الظالم، ولسان ناطق للحق. والمهم بعد ذلك أن يمثل أبطال الفكر والحركية إياه. وسوف أعرّج إلى أبطال الحركية في عالمنا في موضع آتٍ إن شاء الله تعالى. ■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.



أ.د. الشاهد البوشيخي*

الهُدى المنهاجي في القرآن الكريم

أمتنا اليوم لها واقع ولها موقع، جعلها الله في موقع عَلِيٍّ هو الشهادة على الناس؛ لأن رسول الله ﷺ خاتم النبيين لا نبيّ بعده، فمن يقوم بوظيفة البيان والبلاغ والإنذار والشهادة على الناس؟ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣)، فقد شهد ﷺ وأشهد الأمة في زمانه على ذلك فقال فيما هو معلوم مشهور: "ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد" (متفق عليه).

إذن لابد أن تقوم الأجيال عبر العصور حتى تقوم الساعة بنفس وظيفته ﷺ. هذا الموقع العلي ليست الأمة الآن فيه، فكيف تنتقل من هذا الواقع الأليم إلى ذلك الموقع العلي؟ ههنا أمامنا كتاب ربنا، فيه كل الهدى اللازم لهذا الانتقال الفردي والجماعي، على مستوى الأقطار وعلى مستوى الأمة جمعاء. ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(الإسراء:٩)، هذا هو الهدى فيجب اتباعه ليحصل الاهتداء ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۞ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾(المائدة:١٥-١٦)، أما الذي لا يتبع فلا هداية له.

الأمة اليوم في أمس الحاجة إلى هذا الهدى لتنتقل على كل المستويات، -خاصة على مستوى التفكير- تفكير الأفراد وتفكير الجماعات وتفكير الأمة جمعاء. إنها في حاجة إلى هذا القرآن لتنتقل من مستوى الاهتمام بما هي خائضة فيه الآن من التفاهات، وترتقي إلى المستوى الذي كان فيه رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم من حوله، فتجعل الآخرة هي المبتغى ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(العنكبوت:٦٤). فالدنيا ليست هي الحياة ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ۞ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾(الفجر:٢٣-٢٤)، يوم يستيقظ حقا. نحن هنا الآن في وضع

السكرة، ولابد من الاستيقاظ، والاستيقاظُ يقتضي أن نعلم علم اليقين أن هذه ليست هي الحياة، لأن الحياة الحقيقية لا موت فيها ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾(الدخان:٥٦). فالآخرة هي الحياة، وهي التي ينبغي أن تحركنا في كل صغيرة وكبيرة.

وعندما شخّص رسول الله ﷺ وضْع الأمة في مثل حالنا اليوم، شخصها بمرض اسمه "الوهن"، قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: "حب الدنيا وكراهية الموت" (رواه أبو داود). الارتباط بالدنيا والاقتصار بالهم على الدنيا، ابتغاء الدنيا وحبس كل الهموم والطاقات في تحصيل الدنيا والارتفاع فيها.. ليس هذا هو الوضع الصحيح، المسلمون في حقيقتهم آخرويون وليسوا دنيويين، قال الله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾(القصص:٧٧)، فيما آتاك وكل ما آتاك.

لكن، إذا أردت أن تسرف وأن تشتط وتسير على غير الهدى الرباني، فابتعدت عن الدنيا ابتعادا كليا، إذّاك يقال لك: ﴿وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾(القصص:٧٧)، أما الابتغاء فهو للدار الآخرة لا سواها. هذه نقطة تصحيحية في التفكير الكلي الضخم، لابد أن يصبح "التفكير" في منتهاه واضحا، وفي مبتدئه واضحا، وفي ارتباطاته، في علاقتنا بالله ﷻ وبهداه الذي جاءنا. لابد أن يكون في غاية الوضوح، ذلك تصحيح التفكير.

ولابد أن يصحح أيضا "التعبير"، كما في حديث معاذ بن جبل ﷺ المشهور حين قال له رسول الله ﷺ: "ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟" فقلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: "كف عليك هذا"، قلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: "ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم" (رواه الترمذي وابن ماجه). لو تأملنا في الآيات المتعلقة بهذا المجال مثل قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾(الإسراء:٥٣)، أو في الأحاديث كقوله ﷺ: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت" (متفق عليه)، إذا تأملنا قليلا في مثل هذا، أدركنا بوضوح أن المسلم يمثل محطة تصفية للنفايات القولية. فالمسلم لا يمكن أن يرسل إلا الحق والخير، أما ما كان شرا وما كان باطلا وما لم نعلم هل هو شر أم خير، وهل هو باطل أم حق، فهو أيضا يلحق بالباطل والخطأ.

لنتصور أن هذه الحقيقة يعيشها الفرد، وتعيشها الأسرة والجماعة، ويعيشها الإعلام والتعليم وتعيشها الأمة، إلى أي حد يقل الشر في التداول ويكثر الخير.

إن المسلم محطة تصفية، لا يسمح للشر بالمرور، وإن استقبله فهو لضرورة؛ لأن الله ﷻ جعل أجهزة الاستقبال لا تغلق، ولكن أجهزة الإرسال تغلق، فيجب التحكم فيها، فيمكن للمسلم أن يستقبل الخير والشر، ولكن لا يرسل إلا الخير.

نحن بحاجة إذن إلى هذا الهدى المنهاجي أيضا في "التعبير"، ومثل ذلك وأهم منه وأعظم، تحتاج الأمة إليه في "التدبير" لأمور ثلاثة مهمة، أولها: "تيسير الذكر". فلقد حملت هذه الأمة أمانة، ويجب أن تيسرها للناس، تحملها هي بجدارة ثم تبلغها للناس ميسرة، فقد يسر الله ﷻ الذكر للذاكرين: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(القمر:١٧)، وذلك لينتشر الهدى. وثانيها: "تعمير الأرض" وفق هذا الذكر نفسه. وثالثها: "تسخير الكون" وفق هذا الهدى أيضا. كل ذلك هو صلب "التدبير". فأي فعل صدر من العبد يجب أن يحكمه هذا القرآن الكريم.

مفهوم الهدى المنهاجي

"الهُدى" مداره على الدلالة والبيان والإرشاد؛ هَداه يهديه: دلَّه بلطف كما عبر الراغب الأصفهاني قال: "الهداية هي الدلالة بلطف"، وليس بعنف، وهي التي تلائم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وتلائم المرسلين وأتباعهم. فهذه الدلالة بلطف أو هذا البيان الرفيق أو هذا الإرشاد الحكيم، كل ذلك من محتويات الهدى بصفة عامة.

أما "المنهاج"، فهناك ثلاثة ألفاظ تستعمل فيه: "النهج" و"المنهج" و"المنهاج"، وكلها يقصد بها الطريق، لكن "المنهج" أغلب استعماله في الطريق الفكري، وأغلب استعمال "النهج" في الطريق مطلقا، وأغلب استعمال "المنهاج" في الطريق العملي الذي له أصل فكري، ولكن الذي هو في البؤرة في لفظة المنهج هو الطريق الفكري، أي الكيفية النظرية التي يتم وفقها الوصول إلى حقائق معينة. وأما "المنهاج" فهو الطريقة العملية التي يسار عليها للوصول إلى مقاصد بعينها.

فإذا ركبنا الأمر وقلنا "الهدى المنهاجي"، يصير الأمر تلقائيا أن المقصود به هو الطريقة المُثلى في "التفكير" وفي "التعبير" وفي "التدبير". فإذا قلنا: "الهدى"، انصرف إلى هدى الله ﷻ ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾(البقرة:١٢٠)، وحين نقول "الهدى المنهاجي في القرآن الكريم"، نقصد به "الطريقة المثلى في أداء الخلافة، وفي أداء العبادة، وفي أداء الشهادة". فنحن المسلمين مطلوب منا الأداء العام الذي لجميع البشرية، وهو أداء وظيفة الخلافة، ومطلوب

منـــا أداء وظيفة العبادة داخل إطار وظيفة الخلافة، ثم أداءُ وظيفة الشهادة داخل إطار الخلافة. فالعبادة هي الأخص. هذه الشهادة لها طريقة معينة يمكن التأهل لها، ويمكن أداؤها تبعا لذلك التأهل. فالطريقة المثلى التي يرشـــد إليها كتاب الله ﷻ، وبيانه الذي هو السنة الصحيحة، تلك الطريقة المثلى التي ترشد المسلمين خاصة والنـــاس عامة إلى الأفضل والأقوم في كل المجالات، ســـواء في مجـــال التفكير أو مجال التعبير أو مجال التدبير، وهذا الأخير بجميع مستوياته أيضا، تيسيرا للذكر أو تعميرا للأرض أو تسخيرا للكون وما فيه من طاقات ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَـــا فِي الْأَرْضِ وَأَسْـــبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِـــرَةً وَبَاطِنَةً﴾(لقمان:٢٠)، كل ذلـــك كامـــن في كتاب الله ﷻ، وعلى المسلمين استخراجه.

مصادر الهدى المنهاجي

وتتلخص في ثلاثة مصادر كبرى، وهي أولا: القـــرآن فهو الأصل لغيره، ثانيا: الســـنة التي هي بيان القرآن ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُـــزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(النحل:٤٤)، ثالثا: السيرة النبوية. فعندنا ثلاثة مصادر هي: القصـــص القرآني والقصص الحديثي ثم السيرة النبوية.

هذه المصـــادر الثلاثة فيها يتركز الهدى المنهاجي، وإلا فهو موجود في كتاب الله ﷻ كله، وفي ســـنة رســـول الله ﷺ كلها، وفي الســـيرة النبوية الصحيحة كلها كذلك. فالسيرة هي "الوجه العملي للقرآن مربوطا بالزمان"، أو هي "السنة المنظومة في الزمان"، فإذا كان ما في كتب الصحاح والسنن يمثل الإسلام في الوضع الأفقي، أي يستجيب للقضايا الفقهية والعقدية وغيرها، أي ما هو الإسلام؟ وما هو الإيمان؟ وما هو الإحسان؟ فذلك عرض للإسلام في الصورة التي انتهى إليها، لكن السيرة النبوية تعرض ذلك نفسه بطريقة تنمو وتتطور، منذ بدء نـــزول القرآن إلى اكتماله. فكل ما قاله ﷺ بين ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(العلق:١) وبين ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْـــلَامَ دِينًا﴾(المائدة:٣)، قاله بين لحظة بعثته وبين آخر نـــزول للوحي. في تلك الفترة قال كل ما نجده في كتب الســـنة، لكن عـــبر زمان وعبر ظروف بعينها تطوَّر خلالها تطوُّرا؛ وكان يناظر إحلال القرآن الذي كان يتنـــزل ويجعله واقعا في الحياة، التي كانت إذّاك تتشكل بحسب الهدى المنهاجي الذي يأتي به القرآن.

لكن الهدى المنهاجي يتركـــز أولا في القصص القرآني. لأن الله ﷻ قال لرســـوله ﷺ وللأمة جمعاء: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(الأنعام:٩٠)، نحن –ونحن نقرأ في كل ركعة سورة الفاتحة– ليس لنا طلب غير طلب الهدى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(الفاتحـــة:٦) أيّ صراط؟ ﴿صِرَاطَ الَّذِيـــنَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾(الفاتحة:٧) هؤلاء الذين أنعـــم الله عليهم، هم كما في الآيـــة الأخـــرى: ﴿وَمَنْ يُطِـــعِ اللَّهَ وَالرَّسُـــولَ فَأُولَئِـــكَ مَعَ الَّذِيـــنَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِـــنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾(النســـاء:٦٩)، هـــؤلاء الذين أنعم الله عليهم، رأسُهم وأئمتهم هم الأنبياء عليهم الســـلام. ولذلك قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(يوســـف:١١١). من هنالك ينبغي أن يســـتفاد الهدى المنهاجي. ففـــي كل قصة فوائـــد غزيرة، وفي مجموع القصص فوائد أغزر، وحين يرتبـــط ذلك بما هو بعـــده –مما هو آت– يصبح أعظم فائدة.

> إذا استشرفنا المستقبل، لا نستشرفه بناء على أفكار وعلى تخرصات، وإنمـا نستشـرفه بنـاء علـى هـدى منهاجي اسـتنبطناه مـن كتاب الله ﷻ لنبني غدنا على أسـاس متين، موصـولا بحاضرنـا وبماضينـا، لا قطيعـة فيـه ولا انبتـات، وهو على الهدى الرباني الـذي أراد الله ﷻ؛ لأن عِز هـذه الأمة هو في دينها...

أيضا القصص الحديثي، فالنصوص الحديثية كلها مجال للهدى المنهاجي، لأن الحديث بيان للقرآن، ولكن الذي فيه التركيز أكثر لهـــذا الهدى هو الحديث الذي يشـــتمل على القصص والأمثال.

وأما المصدر الثالث، فهو الســـيرة النبويـــة، التي هي الإطار الزمني للقرآن الكريم مفرقا ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾(الإسراء:١٠٦)، وهي الإطار الزمني أيضا لبيان رسول الله ﷺ من السنة الصحيحة. فالسيرة هي قصة النبي الخاتم، قصة أعظم رسول وأعظم نبي وأعظم بشر. فقصته الكبرى توجد في الســـيرة النبوية. وإذا كانت قصـــص الأنبياء توجد في القرآن الكريم، وتوجد إشارات إليها وبيانات في السنة الصحيحة أيضا، فقصته ﷺ موجودة في الســـيرة النبوية التي هي "الصدى العملي الأعلى للقرآن الكريم". هذه الحقيقة تجعلنا ننظر إلى السيرة النبوية

في علاقتها بالقرآن الكريم، نظـرة جديدة مهمة في زماننا هذا، لأن واقـع الأمة لابد من العمل على الانتقال منه إلى الموقع الذي يريد الله منها أن تكون فيه، وهو موقع الشهادة على الناس. هذا الانتقال أكبر مرشد له وأكبر هدى منهاجي يمكن أن نستخلصه له هو في تلك السـيرة مربوطةً بالقرآن الكـريم، أو من القرآن الكريم مربوطا بالسيرة؛ لأن كثيرا من وقائعها موجود في كتاب الله ﷻ، فالحياة الخاصة لرسول الله ﷺ، والحياة العامة في المرحلة المكيـة والمرحلة المدنية كلها مفصلة في القرآن الكريم، وفي بعض الأحيان أكثر مما هي مفصلة في السـيرة نفسها. فلا يمكن دراسة السـيرة النبوية بمعزل عن القرآن، ولا يمكن دراسة القرآن –من هذه الزاوية– بمعزل عن السيرة النبوية.

لوازم استنباط الهدى المنهاجي

إن استنباط الهدى المنهاجي أمر يسير لمن يسره الله ﷻ عليه، لكنه من حيث الإنجـاز هو أمر متقدم، يأتي بعد قراءة القرآن وتلاوته وفهمه والعمل به، وبعد ذلك يأتي اسـتنباط الهدى منه. وللقيام بهذا الاستنباط هناك شروط:

الشـرط الأول: إتقان ما يلزم لفهم القرآن، بدءاً باللسـان. واللسان في القرآن هو اللغة ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾(الشعراء:١٩٢-١٩٥)، ففهمُ أيِّ نص كان قرآنا أو غير قرآن يحتـاج إلى التمكن من "المقام"، والتمكن من "المقال"، أي يحتاج إلى ما يلزم لفهم هذا النـص من علوم المقام وعلوم المقال. لابد مـن إتقان اللغة العربية، فمن لا يتقن اللغة العربية محال بينه وبين اسـتنباط هذا الهدى. فلابد من التمكـين للغة العربية في مختلف المجـالات، لابد من التمكين لها بقوة في التعليم وفي الإعلام وفي الإدارة وفي الحياة العامة، لابد من إيجاد مناخ لغوي، بل مستوى لغوي عربي عام يؤهل الإنسان لتلقي القرآن، ويحضره للمراحل القادمة لاسـتنباط الهدى من القرآن. هذه نقطة في غاية الأهمية والخطورة في الأمة اليوم. فعلى المسـلمين أن يفقهوا الخطر وأن يكونوا في مستوى التحدي في المجال اللغوي، هذا عن المقال.

أمـا عن المقام فيجب أن نعلم أن الـذي يتكلم بهذا القرآن هو رب العالمـين، فالقرآن الكريم كلام الله ﷻ وليس كلام أي أحد، وفيه دليله من مثل قوله سـبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾(العنكبوت:٥١). اعرفوا رسول الله ﷺ، واعرفوا القرآن، ستجدون بوضوح أنه لا يمكن أن يكون القرآن كلام محمد ﷺ، ولا يمكن أن يكون كلام العرب جميعا شـعراء وخطباء في ذلك العصر ولا فيما تلاه، ولا يمكن أن يكون كلام أمة أخرى بـالأولى. فواضح أن رسـول الله ﷺ ينطق نطقين: ينطق نطقا اسمه القرآن، وينطق نطقا اسمه السـنة، اقرأ هذا واقرأ هذا، وسـتجد الفرق كبيرا بين الكلامين. قارن القرآن بصحيح البخاري أو بصحيح مسـلم، تجد أن هذا كلام رسول الله ﷺ، وأن هـذا نطق به رسـول الله ﷺ، ولكنه كلام الله ﷻ، له بناء خاص جزئي وكلـي، فكتاب الله ﷻ من حيث البناء له مقدمة هي الفاتحة، وله خاتمة هي سورة الإخلاص والمعوِّذتين، وله بناء معين في أقسـامه الأربعة: من السـبع الطوال إلى المئين والمثاني فالمفصل، ولكل جزء منه وضع خاص. فهذا أمر لابد من اليقين فيـه من أن الذي يتكلم هو الله ﷻ، إذ لابد لفهم الخطاب فهما صحيحا أن يُعلم مَن الـذي يتكلم به، من المخاطِب؟ وأن يُعلم أيضا من المخاطَب؟ سواء رسول الله ﷺ، أو الفترة بكاملها، من هـم العرب إذّاك؟ ما مكة؟ ما المدينـة؟ ما أولئك الناس؟ كيف كان حالهـم؟ وكيف هم؟ وكيف هي عادتهم في الخطاب؟ لابد من معرفة هـذا المقام، ومن معرفة طبيعة العلاقة، وكل ما كانوا عليه. فهذه الأمور مما يدخل أحيانا في علوم القرآن بصفة عامة، خصوصـا ظروف النـزول وما يتصـل بالنـزول، وما يتصل بالتدوين، كل ذلك لابد من العلم به لتيسير هذه الخطوة.

والشرط الثاني: الإيمان وارتداء لباس القرآن، وقد عبرت باللباس لأن الله تعالى قال: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾(الأعراف:٢٦). لأن القرآن خُلُـق، "كان خلقه القرآن" ﷺ، كما أجابت أم المومنين عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خُلق رسول الله ﷺ. والتقوى لباس يُلبس، بمعنى أنه يجب أن يكون ظاهرا في لسـان العبد وفي عينه وفي أذنه وفي قلبه، وفي كل شـيء من جوارحه. فلابد من الإيمان، لأن الله تعالى قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِـفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾(فصلت:٤٤). فلا يسمعون إذ لا صلة لهم بالقرآن، فالـذي لا يؤمن بالقرآن لا يمكن أن يفهـم القرآن، ولذلك لا يمكن أن يؤخذ عنه علـم القرآن. والذي لا يعمل بالقرآن أيضا لا يمكـن أن يؤخذ منه لا القرآن ولا علـم القرآن. هذا العمل هـو الذي يعطي النور ﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُـوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُـولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُـونَ بِهِ﴾(الحديد:٢٨). فهذا النـور لا يكون بغير التقوى، ولذلك كان الإيمانُ بالقرآن والعمل بالقرآن شـرطا في الفهم السليم للقرآن.

والشـــرط الثالث: هو فقه حاجة الأمة في هذا الزمان، فالذي يتصدى لاســـتنباط الهدى المنهاجي لا يكفيــه أن يكون عليما بالعربيـــة، عليما بعلوم القرآن، مؤمنا بالقرآن، بل لابد أن يكون مفقّهـــا في ظروف زمانه، فقيها في حاجـــات الأمة اليوم، يعاني أحـــوال الأمة ويعرف وضعها أين هي؟ ومـــا حالها؟ وما الذي تحتاج إليه الآن؟ لابد أن يفقه هذا. وهذا يقتضي "المعاصرة التامة والمعايشـــة التامة لزمانه"، لأن عملية تنـــزيل النص على الواقع تتأثر عمليا بذلـــك. فالواقع لابد أن يُعرف لينـــزَّل عليه القرآن التنـــزيل الصحيح. زيادة على أنه مهم ليكون حلا للمعضلات والمشـــكلات، وليكون طريقا فعلا إلى الصعود لتصبح الأمة - عمليا- واحدة، وتصبح شاهدة، وتصبح رائدة. هذا مطلوب منا اليوم، مطلوب أن نسير في هذا الطريق حتى تصبح الأمة واحدة. والأمة في أصلها واحدة، ويجب أن تعود يوما ما واحدة، لابد أن تعود بجهد المسلمين جميعا حكاما ومحكومين، رؤساء ومرؤوسين، لابد أن يتعاونوا على هذا البر وعلى هذا التقوى، لكي تعود الأمة واحدة، ثم لكي تعود شـــاهدة، أي مؤهلة فعلا للشـــهادة على الناس، ولكي تعود رائدة لسواها في كل المجالات.

التركيز في الدرس القرآني على الهدى المنهاجي

عندنا في الدرس القرآني ثـــلاث علاقات: علاقة بتراثنا القرآني، وعلاقة بحاضرنا اليوم، وعلاقة بمستقبلنا.

ففـــي الأولى: ينبغي أن نركز على هذا الهدى المنهاجي لدى علمائنا، سواء في التفاســـير أو في غيرها، يجب أن نبحث هناك وننقب عن هذا النوع الذي يمكن أن نســـتفيد منه اليوم. ويدلنا الدلالـــة الصحيحة على كيفية النهوض من جديد، وكيفية العود إلى الصراط المستقيم، إلى الوضع الصحيح، إلى الموقع العلي. هذا الذي ينبغي أن يكون في البؤرة.

وفي الثانيـــة: يجب أن يكون التركيز على الهدى المنهاجي في معالجة أدواء الحاضر ومعضلاته. فالذين يبحثون في الأمة، والذين يفكـــرون، والذين يجتمعون على الخير أو يتشـــاورون، كل مَن فكّـــر وحَمَل همّ الأمة واتجه إلى أن يحل معضلة من معضلاتها أو يعالج داءً من أدوائها، يجب أن يعالجه أولا في ضوء ما استخلصه مـــن كتاب الله ﷻ من هذا الهدى الذي يلزم لمعالجة هذا الداء، بمعنى أن لا نعالج أدواء الحاضر بالهدى الغربي أو الهدى الشـــرقي، يجب أن نعـــالج أدواءنا بالهدى القرآني الذي هو هدى الله أما ما جاء عن ســـواه من الفهوم التي للبشـــر -مهما بلغت منـــزلتهم ودرجتهم- فلا يســـتطيعون أن يصفوا الأدوية الكافية الشافية؛ لأنهم لا يعلمون كل شـــيء، لا يعلمون الغـــد ولا الحاضر ولا الماضي، بينما الله ﷻ يعلم السر وأخفى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(الملك:١٤). ولذلك فالدراســـات أو البحوث أو المؤتمرات وكل الجهود يجب أن تركز على هذا الأمر.

ونفس الشـــيء في علاقتنا بالمســـتقبل، وذلك إذا استشرفنا المســـتقبل لا نستشـــرفه بناء على أفكار وعلى تخرصات، وإنما نستشـــرفه بناء على هدى منهاجي استنبطناه من كتاب الله ﷻ لنبني غدنا على أساس متين، موصولا بحاضرنا وبماضينا، لا قطيعة فيـــه ولا انبتات، وهو على الهدى الرباني الذي أراد الله ﷻ؛ لأن عز هذه الأمة هو في دينها، فإذا فرّطت في دينها ضاع عزها كما نراه اليوم. وإن هذه الأشكال من الخلل التي نراها نحن، أو يراها غيرنا من الخارج، ويســـمونها بأسماء، إنما هي نتائج لغياب هذا الهدى. فنحن الآن لا نعلِّم الأمة القرآن، أوَ نســـتطيع أن ندعي هذا الادعاء؟! التعليم عندنا اليوم لا يجاوز أربعة أحزاب فقط في المغرب، وهي تُعطى في المرحلة الابتدائية حيث الطفل لا يستطيع أن يســـتفيد شيئا من هذا الذي نتحدث عنه، فهل ستة وخمسون حزبا ليست من القرآن؟! هل يوجد شيء أهم في حياة الأمة من القرآن حتى نقدمه على القرآن؟! هل يوجد؟ كلا طبعا!.. فيجب أن يصبح القرآن هو الأســـاس في التعليم وفي بناء الشخصية في الأمة، هذه نصيحة لله تعالى، وحقيقة نعلنها ونسرها ونجهر بها، هذا عين الحق الذي يجب أن يتبع.

إن هذا الاستشـــراف لابد أن يســـهم ويتعاون عليه التعليم بالدرجة الأولى، والبحث العلمي والإعلام ومؤسسات المجتمع المدني بصفة عامة. والطريق هو أن يتجه الجميع نحو قبلة واحدة، هي التركيز على القرآن الكريم لاستفادة ما ينبغي الاستفادة منه، والتركيز على الوحي جملة بما فيه من سنة رسول الله ﷺ، والتركيز على الذين استنبطوا من ذلك الهدى ما استنبطوا، مما ينفعنا مما أشرنا إليه في علاقتنا بالماضي، كل ذلك نســـتفيد منه جميعا ونتجه إليه جميعا. فالإدلاجَ الإدلاج، وعند الصباح يحمد القوم السرى..! ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.



يا قلوبا لبحر الحقيقة شطآنا... عطشى تبقون، أبداً لا ترتوون، وبضربات الموج تفرحون، فكلما سُقيتم ازددتم عطشا، وصرختم "هل من مزيد". وها أنتم على ضفاف الحقيقة؛ محاريبَكم تقيمون، وفي ظلالها تسكنون وتستقرون.

***





العلم الحديث ومعرفة الغيب

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي*

كان ولا يزال جدل يمتد بين المنتصرين للعلم بمضمونه الحديث، والغيارى على العقيدة الإسلامية أن لا تشوبها شائبة، وأن لا يتسرب إليها وهم باطل. كان ولا يزال ثمة جدل يثور بين هذين الطرفين، حول الكثير من المسائل التي كانت فيما مضى محجوبة عن حواس الإنسان بحجاب الغيب، ثم إن العلم الحديث كشف عنها –فيما يبدو– هذا اللثام، وأخضعها لحواس الإنسان.

كيف السبيل إلى التوفيق بين ما نعتقده ونجزم به مما يدل عليه كتاب الله ﷻ، وبين هذا الواقع العلمي الذي لا مناص من الإيمان به؟ أحسب أن في كتاب الله ﷻ آية أنهت هذا الجدل واللجج وعقدت صلحا بين العلم الحقيقي، وبين العقيدة الصحيحة. بل أقول إن هذه الآية أكدت صلحا قائما من الأزل بين العلم الحقيقي والعقيدة الإيمانية التي جاء بها الرسل والأنبياء. هذه الآية هي قول الله ﷻ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ

يَعْلَمُهَـــا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(الأنعام:٥٩).

فكيف ألهت هذه الآية هذا الجدل؟ عندما نتأمل في المطلع الذي صدّرت به هذه الآية، تجدنا أمام جملتين اثنتين، كل منهما يحصر مفاتح الغيب في ذات الله ﷻ. الجملة الأولى أثبتت هذه الحقيقة، عن طريق تقديم الخبر على المبتدأ. وتلك أداة من أدوات الحصر: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾، أي لا عند غيره. أما الجملة الثانية فقد شرحت وأكدت ونصت على ما دلت عليه الجملة الأولى: ﴿لاَ يَعْلَمُهَـــا إِلاَّ هُوَ﴾. والمهم هنا أن نتبين كيف أن الضمير يعود إلى "المفاتح" لا إلى "الغيب": ﴿وَعِنْـــدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُـــوَ﴾، أي لا يعلم هذه المفاتح أحد إلا الله ﷻ. وفي هذا دلالة عميقة ينبغي تدبرها، وينبغي الوقوف عندها، لندرك كيف أن العلم والإيمان يتعانقان منذ الأزل، ولا ينفك الواحد منهما عن الآخر.

الفرق بين الغيب ومفاتحه

ما الفرق بين الغيب ومفاتحه؟ أما الغيب فهو كل ما يتوقعه الإنسان مما لم يحدث بعد، بناء على دلائل اعتمدها. توقعُ الإنسان هبوط درجة الحرارة بواســـطة رآها -بواسطة كتلة هوائية رآها كيف تسير- من الغيوب.. توقع هطول الأمطار في مكان ما بناء -على دلائل قطعا هي عملية- من الغيوب.. توقع الطبيب أن يولد الجنين ذكرا -بناء على مؤشرات رآها في الصبغيات أو الكروموزومات- من الغيوب.. توقع الشـــفاء بعد تناول الدواء، من الغيوب.. بل توقع الاحتراق، احتراق الهشيم بعد وضعه في النار، من الغيوب.. ذلـــك لأن هـــذه الأمور كلهـــا لم تقع بعد، ولكنهـــا متوقعة. والشـــيء الذي يجعلنا نتوقعها، بصيرة علمية رأيناها واعتمدناها، والبصائـــر العلمية مبثوثـــة في كون الله ﷻ، هـــذا هو الغيب.

فما المـــراد بمفاتح الغيب، بقطع النظر عما ذكره علماء اللغة من المعاني المتعددة لكلمة مفاتح ومفاتيح، ومفتاح، ومفتح؟ فإنه ممـــا لا ريب فيه أن المراد بمفاتح الغيب دســـاتيرها، أي الفاعلية الكامنة وراء هذه الأحداث المتوقعة، الفاعلية الكامنة وراء تسيار الكتلة الهوائية من مكان إلى مكان. نحن نرى هذه الكتلة الهوائية، ولكن ترى ما الدستور الكامن وراء تحركها أو تبددها أو وقوفها في مكان ما؟ نحن بوسعنا أن نتبين مؤشرات الذكورة في الجنين، ولكن من أين جاءت فاعلية العلاقة بين مؤشـــرات الذكورة في الصبغيات وبين النتيجة التي نتوقعها؟ نحن نتوقع -بل ربما نعلم- أن تناول الدواء يشفي، وأن تناول السم المهلك يهلك، ولكن ما مصدر الفاعلية الكامنة في العلاقة السارية بين هذا الدواء وأثره؟ ما مصدر العلاقة الخفية الســـارية بين هذا السم وأثره؟ ذلك هو الذي يعنيه البيان الإلهي بالمفاتح ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾.

ومن هنا ندرك السبب في أن الله ﷻ سكت -إن جاز التعبير- عن الغيوب التي ضرب الأمثلة بها، وركز على حصر علم المفاتح في ذات الله ﷻ. فما المعنى الذي ننتهي إليه من هذا التفصيل، ومن حصر الله ﷻ مفاتحَ، أي دساتير وفاعليات الغيوب في ذاته ﷻ؟

هذا تنبيه لكل من سجن نفســـه في سجن الطبيعة أو المادة؛ رأى ظواهـــر المادة فأعطاها هي فاعليتهـــا، أعطى الدواء فاعلية الشـــفاء، أعطى النار فاعلية الإحراق، أعطى هذه الصبغيات أو مؤشـــر الـــ"واي" (why) في الصبغيات فاعلية الذكورة. وهكذا يرد البيان الإلهي على هؤلاء قائلا: لكم أن تشاهدوا هذه الغيوب وأن تتوقعوها، وما أيســـر أن تتوقعوها إن سلكتم مسلك الدارية والعلم. ولكن لا تنســـوا أن هذه الغيوب التي تتوقعونها، ليست فاعليتها كامنة في ذات هـــذه المواد أو الطبيعة، فاعليتها آتية من عندي، ومن ثم فأنا أعلم كيف أتصرف بها. هذه الكتلة الهوائية، من حقكم أن تتصوروا كيف أنها تسير شمالا، ومن ثم فهي تصل بعد حين محدد إلى المنطقة الفلانية وتعمل عملها، ولكن لا تنسوا أنّ تحـــرك هذه الكتلة إنما هو عائد إلى ســـلطاني، مقاليد تحركها بيدي، فأنا الذي أعلم هل أسيّرها أم أوقفها أم أبددها.

ولعل أيســـر تصوير لهذا الذي يبصرنا به كتاب الله ﷻ، أن نفترض أننا نشاهد سفينة عملاقة تمخر عباب البحر، متجهة إلى شـــاطئ، وإنّ بوسعنا أن نقول بناء على توجهها هذا إنها ستصل إلى شاطئها بعد ثلاث ساعات مثلا، ولكن الحصيف والواعي من الناس يعلم أن الســـفينة لا تتحرك تحركا آليا، وإنما هنالك ربان بيده مقاليدها. فهو الذي يسيرها كما يشاء، ولعل خاطرا يعنّ له يدعوه إلى أن يوقفها في مكان، أو أن ينهج بها سبيلا آخر. وهذا مثل نضربه لحياتنا الراهنة، وعلاقة ما بيننا، عندما نتذكر أن الله ﷻ وهو فاطر السماوات والأرض، خالق الأسباب والمسببات ورابط ما بينهما بالعلاقة التي لا نتبين إلا نتائجها، هذا ما يعنيه بيان الله ﷻ.

فما النتيجة التي ننتهي إليها؟ النتيجة التي ننتهي إليها، هي أن على الإنســـان الذي آمن بالله ﷻ قيوما للسماوات والأرض أن يعلم أن هذه الأسباب والمسببات مرتبطة بمقاليد، وأن هذه المقاليد بيد الله ﷻ. على الإنسان العالم -قبل أن أقول المؤمن- أن يعلم أن هذا الذي يراه في عالم المادة جنود لله ﷻ، سخرهم الله لما شاء كما يشـــاء. وما ينبغي -إذا كان يحترم العلم ومصادر العلم- أن

يخدع بالمظاهر عن الأسـرار، أو بالصور عن المصور، ما ينبغي إطلاقا له أن يجنح إلى هذا النهج. هذا ما يحذر منه بيان الله ﷻ.

نظرة علمية منصفة

ولكن هل هذا الكلام الذي يؤكده بيان الله بعبارة غريبة معجزة أخاذة في هذه الآية يؤيده العلم الحديث؟ مع العلم أننا لسنا بحاجة إلى علم حديث يؤيد بيـان الله، بل العلم الحديث بحاجة إلى أن يجد دلائل صدقه في بيان الله ﷻ. ولكن فلنحاور هؤلاء الإخوة الذين يعتدون بالعلم:

أذكر أني قرأت كلاما لـ"دافيد هيوم" -وهو العالم الوضعي المعروف- يقول فيه: "لو أنني رأيت أن هشـيما احترق في النار آلاف المرات، فلن أسـتطيع أن أدلي بقرار علمي بأن هذا الهشيم سيحترق يقينا للمرة الجديدة، إلا إذا جربت، وألقيت هذا الهشيم فاحترق". فهـو لا ينطلق من قرار ديني، وإنما ينطلق من موازين علميـة هو دقيق في تبينها.. ذلك لأن الأمور التي نراها أمامنا إنما اسـتخرجنا قواعدها من التجارب الماضية، والتجارب الماضية لا تغطي دائما الأحداث المستقبلية.

لعل خارقة تقع، لعل أمرا غير متوقع يحصل، أنا أظن ظنا راجحا وقويا أن هذا الهشيم سيحترق، ولكني لا أستطيع أن أجعل تصوري وقناعتي أو يقيني هذا قرارا علميا بالمعنى الأكاديمي لكلمة "العلم".

هذا الذي يقوله هيـوم، إنما يقوله انطلاقا من تذوق علمي. وها نحن نرى كتاب الله ﷻ يبين لنا أن علينا أن لا نرتاب في أن هذه الصور التي نراها إنما يسيرها الله ﷻ.

في كتاب الله ﷻ صورة لحوار أخّاذ بين سـيدنا نوح وابنه، يجسـد هذه الحقيقة التي أقولها، يبرز المنطق الوهمي الطبيعي الذي يسـجن صاحبه في ظلام من الحيرة، ويبرز الموقف العلمي الذي يستنشق صاحبه عبير الإيمان بالله ﷻ، والارتباط بالله ﷻ. عندما اهتاج الطوفان، وتحولت الأرض اليابسة إلى بحار تهتاج بالأمواج المتلاطمة، وكان لنوح ابن شارد عن صراط الله ﷻ، يصور البيان الإلهي حوارا يقول فيه: ﴿وَنَادَى نُـوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾(هود:٤٢)، اركب معنا في السفينة التي أمرنا الله ﷻ أن نجتمع فيها ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ۞ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾(هود:٤٢-٤٣)، ذلك هو منطق الإنسان الذي يسجن نفسه في المادة أو الطبيعة.

إن هذا الماء المنهمر من السماء أو المتفجر من الأرض، إن كل ذلك إلا طغيان طبيعة، وها أنذا سـألتجئ من الطبيعة إلى حصن الطبيعة، سألوذ من طغيان الطبيعة بهذا الجبل الأشم. لم يتصور أن هنالك فاعليـة كامنة في هذه الظاهرة إلا داخل هذا العالم الذي رأى. فماذا كان منطق النبوة؟ ماذا كان جواب الوالد الشـفوق على ابنه الذي دعته شـفقته إلى أن يجذبه عن هذا التيه إلى صعيد الإيمـان بالله ﷻ؟ ﴿قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾(هود:٤٣).

لا عاصم اليوم، المسـألة ليست مسألة طغيان طبيعة، ليست المسألة أن طبيعة استشرى بها الطغيان حتى تتصور أن بوسعك أن تلجأ منها إلى جبل أشم. إنه أمر الله ﷻ. الماء الهاطل من السماء المتفجر من الأرض، والأعاصير المختلفة، إنْ ذلك كله إلا جنود مجندة لله ﷻ. والجند إنما يأخذ تعاليمه من غرفة العمليات، إنما يأخذ تعاليمه من قائده. فهذا العالم كله جنود ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾(المدثر:٣١)، هؤلاء الجنود مرتبطون بمقاليد، مرتبطون بمفاتيح، والمفاتيح بيد الله ﷻ. هذا الكلام، هذا المشهد الحواري يعمق هذه الحقيقة التي يتحدث عنها بيان الله ﷻ بعبارة علمية إيمانية واضحة.

بين الغيب والسنن الكونية

ولكن أحسب أن هنا إشكالا قد يطوف في أذهان كثير منا. إذا قلت إن مفاتيح هذه الغيوب بيد الله ﷻ وليس للأسباب التي نراها في عالم الطبيعة أي فاعلية إطلاقا، وإذا كان علينا أن ندرك ذلك فإننا سنجد أنفسنا في حالة لا نستطيع أن نتعامل فيها مع الحياة، لأن الثقة بيننا وبين عالم الأسـباب والمسـببات تنقطع. لن آخذ نفسي بعلاج، فلعل هذا الدواء تزول فاعليته. لن أنهض من أجل أن أتسـبب برزق، ذلك لأن هذا السبب لا قيمة له، إنما الفاعلية بيد الله ﷻ، بل لن أحمي نفسـي من النيران المهلكة، أو السموم المميتة، فلعـل هذه الفاعلية التي أراها تنحجـب وتنفصل عنها.

وهكذا فإن الإنسـان إذا استسلم لهذا التصور فربما أداه هذا التصور إلى عدم الثقة بهذا الكون، ومن ثم فإن الإنسان لن يتحرك ابتغاء هدف. وهي مشكلة، فما الجواب عنها؟

لعل خير من أجاب عن هذه المشكلة هو حجة الإسلام الإمام الغزالي. في كتابه "تهافت الفلاسفة" صور هذا الإشكال، ثم قال: أجل، إن الغيوب التي نتوقعها ليست حتمية الوقوع، لأن مقاليدها ومفاتيحها بيد الله ﷻ، ولكن لله ﷻ سنة في الكون، أي قانون سـار. أقام على هذا القانون علاقة ما بين الأسباب والمسببات، وأعلن في كتابه المبين أن سـنة الله لا يلحقها تبديل ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾(الإسراء:٧٧).

نعـــم، وقد أكد البيان الإلهي هذا المعنى في أكثر من آية، فإذا رأينا أن الطعام يشـــبع والماء يروي، وأن الدواء يشفي، وأن النار تحرق، وأن دلائل الذكورة في الصبغيات مرتبطة فعلا بالذكورة، وكذلك العكس، فينبغي أن نعلم أنها سنة ماضية في عالم الله ﷻ، وقد قال الله ﷻ: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾(الإسراء:٧٧)، هذا قانون، العالم ليس فوضى، ومن ثم فإننا نملك ما يسميه الإمام الغزالي "اليقين التدريـــبي"، بأن ما استمر على نهجه في الماضي سيظل مستمرا في الحاضر وفي المستقبل.

نعـــم، ولكن هنا لفتة دقيقة جدا. الله ﷻ يقول: ﴿وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ أي لن تقوم سنة جديدة مقام السنة القديمة. لن يقوم نظام جديد مكان النظام الذي شـــاءه الله ﷻ في علاقة ما بين الأســـباب والمسببات، لكن الاختراق ممكن، والاختراق غير تحويل السنة إلى سنة أخرى.

من العلم الحتمي إلى اليقين التدريـــبي

كثيرا ما تقع اختراقات باسم المعجزات أو خوارق بقطع النظر عن ارتباطها بنبي جاءت المعجزة تأكيدا لصدقه. تقع هذه الخوارق. ووقوعُ هذه الخوارق أنزل التوقعَ من العلم الحتمي إلى ما يسميه الإمام الغـــزالي اليقين التدريـــبي. فأنا كطبيب مثلا رأيت حياتي كلها ظاهـــرة تربط بين نوع من الصبغيات وبين ذكورة الجنين، فمن حقي أن أجعل من هذه الظاهرة يقينا لكن تدريبيا، لا يقينا علميا أكاديميا حتميا. وجدتُ أن الدواء يشـــفي، فمن حقي أن أتعامل مع هذا الدواء على هذا الأساس. ذلك لأن هذه "سنة الله" ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾(الفتح:٢٣).

وجدت أسباب الهلاك، ورأيت أن الله جعل أسبابا للهلاك، إذن أتعامل معها. بل تقوم شريعة الله على هذا الأساس: "تداووا عباد الله فإن الله ما أنزل داء إلا وأنزل له دواء" (رواه الأربعة).

ولو أن إنســـانا تفاعل مع هذه الآية الربانية ونســـي سنة الله في الربط بين الأســـباب والمسببات، وألقى نفسه في مهلكة لكان منتحرا، ولكان آثما وعاصيا. ولو أن إنسانا قال: أنا -وقد ظمئت- لن أسعى إلى الماء لأرتوي منه، فإن الله ﷻ قادر أن يرويني، يقول العلماء: هذا الإنسان يسيء الأدب مع كون الله ﷻ لأن الله ﷻ أقام ســـببا لريي، كما أقام سببا لشبعي، وإذا كان الأمر كذلك فما ينبغي أن أتجاهل السنة الربانية التي أقامها الله ﷻ بين عباده.

وهكذا فإن المشكلة تنجاب. نتعامل مع الحياة طبقا للأسباب والمســـببات التي أقامها الله ﷻ بيننا. إذا سمعت نشـــرة الارصاد الجوية أتعامـــل معها، وأعلم أن هـــؤلاء لم ينطلقوا من قرارهم وبيانهـــم إلا من يقين تدريـــبي. ويقصد الإمـــام الغزالي باليقين التدريـــبي اليقين الذي تكامل وتكاثـــف من التجارب الكثيرة الكثيرة الكثيرة التي أورثتني يقينا، ولكن احتمال الشذوذ قائم.

احتمال الشـــذوذ هو الذي يذكرني بقولـــه تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾، عنده مفاتح الغيب، ولعلنا جميعا نعلم أن هنالك كتابا ألفه باحث أو صحفي أمريكي سماه "غرائب العالم"، وحشد فيه مئات الغرائب التي تخالف العلم، وتخالف -في الظاهر- سنن الله ﷻ. وكل ظاهرة من هذه الظواهر تجعل الإنسان وتضعه أمام حيرة، ولكنها لا تضع المؤمن أمام حيرة قط.

تفســـير ذلك أن الله ﷻ يرينا بين الحين والآخر، من خلال هـــذه الخوارق ما يذكرنا بأن مقاليد هـــذا الكون بيد الله، وبأن مفاتيـــح الغيوب عائـــدة إلى الله ﷻ. وفي هذا يقول لنا: تعاملوا مع هذا الكون طبق الســـنة التي أقمتها، ولكن إياكم أن تسجنوا أنفسكم من هذه الســـنة في تصور مادي طبيعي أرعن، تذكروا أنني أنا الذي وضعت هذا المنهج.

أحســـب أن هذا الكلام ينبّه العلـــم إلى حقيقة ما يقوله الله ﷻ، ولابد أن ينغض الرأس لبيان الله، وأحســـب أن الإنســـان الغيور على العقيدة الإسلامية لابد أن ينغض الرأس أيضا للحقيقة العلمية التي تجعلنا نتفاعل مع عالم الأسباب والمسببات، ولا ننسى أن الجذع الواحد عائد إلى الله. فروع الأســـباب كثيرة جدا جدا نتعلق بها، ولكن ما ينبغي أن نفصل ما بين هذه الفروع وجذعها الذي يعبر عنه بيان الله ﷻ بكلمة "مفاتح".

والآن مـــا النتيجة العلمية التربوية الـــتي ننتهي إليها من هذا الكلام الذي وعيناه؟ النتيجة العلمية واضحة، لكنني لا أحب أبدا في الموضوعات التي نتناولها أن نكون نظريين فقط. أحب أن أجند كل مسألة علمية لوظيفة ســـلوكية تربوية. ما الفائدة السلوكية التربوية التي يجنيها المسلم من خلال هذا الذي قلناه؟ الفائدة هي أن الإنســـان إذا وعى هذه الحقيقة عاش مع ما يقوله الربانيون، مع وحدة الشهود. وما وصل إنسان إلى الإيمان الحقيقي بالله ﷻ إلا بعد أن ارتقى إلى وحدة الشـــهود هذه، بل ما ذاق الإنسان المؤمن نشوة الإيمان بالله ﷻ ولذة اليقين به إلا إذا ذابت الأكوان أمام بصـــره، وهو موقن بها ببصيرته لـــيرى من خلالها المكون.

وكم يسأل كثير من الناس ما السلّم الذي يرقى بي إلى سدة وحدة الشـــهود؟ أكون مع الأكوان وأتعامل معها، ولا أرى من خلالها إلا المكون، ما السبيل إلى ذلك؟

السبيل إلى ذلك أن يهضم عقلي باستمرار هذه الحقيقة التي ذكرناها، أن يعلم الإنسان أن الغيوب المتناثرة في الكون مردها إلى مقاليد بيد الله ﷻ فهو العليم بها، وهو المتصرف بها. وليغذ يقينه العلمي هذا بالكثير من ذكر الله ﷻ.

فالإنسان إذا وعى هذه الحقيقة يعيش وهو يتعامل مع الأكوان، مع المكون ﷻ. إن تناولتُ الماء على ظمأ وشعرت بلذة الري تسري في كياني تذكرت الله ﷻ، وعشت مع قبس وهاج من محبة الله ﷻ، وإن تناولت الدواء وقد وصفه لي الطبيب، ونظرت فوجدت أن الله قد شفاني بعد تناوله أنسى الدواء، وأعيش مع المداوي الحقيقي، مع الله ﷻ، أعيش مع مفاتيح هذه الغيوب.

نعم، كذلك عندما أتناول طعامي، كذلك عندما أجد أن هنالك أخطارا تطوف بي، ثم أن أسبابا أيا كانت أبعدت هذه الأخطار عن كياني، أعيش مع مفاتيح الغيب، أي مع من بيده مقاليد هذه الغيوب كلها، وإذا استمر بي الحال على هذا المنوال، فلسوف أستطيع أن أجمع بين أمرين طالما صعب على كثير من الناس الجمع بينهما؛ أكون إنسانا فرشيا يتعامل مع الأكوان تاجرا مزارعا سياسيا قائدا، أكون مع خضم هذا الكون، ولكن عقلي ومن ثم وجداني، كل ذلك منصرف إلى شهود الله ﷻ.

هذه هي النتيجة، نتيجة النتيجة. النتيجة الأولى أن نحقق عقيدتنا الإيمانية بالله ﷻ التي تجمع بين العلم الحقيقي وبين العقيدة الصحيحة التي جاء بها كتاب الله ﷻ. ثم إنا إذا أخذنا أنفسنا بهذا الذي يقوله الله ﷻ، وغذينا أنفسنا بمزيد من الأدلة، فإننا نرقى إلى مستوى وحدة الشهود.

إن الإنسان الذي ذاق لذة هذا المعنى ينظر إلى الأكوان كلها من حوله وكأنها ألواح من الزجاج الصافي الدقيق، هذه الألواح موجودة، ولكنه مهما حدق فيها لا يرى فيها إلا ما وراءها، لا يرى فيها إلا المكون ﷻ. نحن نقرأ قول الله ﷻ: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾(البقرة:٢٥٥) نقرأ هذا الكلام وندركه علما، ولكن هل نتفاعل به وجدانيا؟ هذه هي النتيجة التي أرجو وأسأل الله ﷻ أن يكرمنا بها جميعا. ■

(*) كلية الشريعة، جامعة دمشق / سورية.



المخاض الجديد

آن الأوان،
ودقّتْ ساعة المخاض،
أحشاء الظلام تمور
وتتحفز وتتألم،
إذ النور من أحشائها سيتدفق،
وقلب العالم به سيخفق ويتألق...

* * *

إذا ارتقت الأفكار، وعمقت في الطبيعة الأنظار، بان الجمال وظهر؛ فيغدو كل شيء بالجمال مرسوما، وتجلي الله في الوجود معلوما؛ في ألوان الزهور، وحفيف الأغصان، وتغريد الطيور، وعادت سنن الكون مَصَبَّ جمال ومنبع جلال.

***

سر الدعاء وخفاء الأسماء

أ.د. فريد الأنصاري*

ا

الدين غذاء كلي شامل، غذاء للروح وللعقل وللبدن جميعا؛ فكل الصلوات، وكل الزكوات، وسائر الأعمال من الأركان والسنن والفضائل أطباق شهية من غذاء الدين. بيد أن كثيرا من الناس في هذا العصر غلب عليهم الاهتمام -من الدين- بما يغذي العقل فقط، أو ما يغذي عزيمة جهاد العدو فقط، أو ما يشحذ الذهن لخوض غمار الصراع السياسي فقط. وكل ذلك زاد ضروري للمؤمن، لكنه جزء من الدين وليس كل الدين.

ومن ثَمَّ كان لابد من تغذية أخرى، تغذية ترجع على كل ما سبق بالتخلية والتحلية؛ حتى يكون معبّرا بصدق وإخلاص عن حقيقة الدين.. تغذية ذات طبيعة أخرى ومذاق آخر، تنال فيها من لذات الروح ما لا تجده في شيء آخر.. إنها "خلوة الروح للمناجاة والابتهال"، خلوةٌ لا يعكر صلتَك بالله فيها شيءٌ على الإطلاق.

وإنما هي أوقات تختارها بنفسك، لتناجي فيها ربَّك بالثناء والدعاء، أوقات يصفو فيها قلبُك لله ويخلص له، بليل أو نهار، فتعرج إليه أشواقُك في خلوات الروح رَغَباً ورَهَباً، عبرَ كلماتٍ الذكر والثناء عليه تعالى، بما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، مما عَلَّمَنَا سبحانه من أسمائه الحسنى وصفاته العلى.. فتدعوه بما دعاه الأنبياءُ والصِّدِّيقون والأولياءُ المخلَصون.

وإنَّ لذِكْرِ الله ﷻ بالدعاء والثناء عليه -مَقْرُونَيْنِ- لأثراً عجيبا على النفس، وإن ذلك لمن أحب العبادات إلى الله، وأقربها طريقا إليه تعالى. والثناءُ على الله ﷻ يكون أساساً بما أثبت لنفسه تعالى



من أسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ ذلك أن الثناء عليه تعالى بأسمائه وصفاته، وجميل صنعه وفعالــه، وحكمة تقديره وتدبيره مرتبط أشــد الارتباط بأدب الدعاء، في كل الصيغ الواردة عن الأنبياء والصالحــين، كما هو منصوص عليه في القرآن الكريم والســنة النبوية بشكل مســتفيض؛ حتى إنك لا تكاد تجد دعاءً قرآنيا أو سُنِّيا إلا وتجده مقرونا بالثناء على الله بجمال أسمائه وصفاته تعالى. وهــو منهج بقدر ما يكون أدعى للإجابــة والقبول، يزيد العبد معرفة بالله وعلما به جَلَّ عُلاَه. وإن ذلك لَهُوَ من أعظم المقاصد التعبدية في الدين، ومن أجمــل الطرق الموصلة إلى رب العالمين.

وإنَّ أوقاتــاً تصفو فيها النفس لمثل هذا لهي "الأوقات" حَقّاً! وقــد كان الربانيون من قبلُ إذا عَلِمُوا أحدَهم له مثل ذلك قالوا في ترجمتــه: "فلان له أوقات"، أو "كان صاحب أوقات" وكأنما "الوقت" -بهذا المعنى- إنما هو ما تمضيه في مناجاة الله.. وما سواه ليــس لك بوقت، بل قد ضاع منك ومضى هدراً..! وأما الآخر فقــد بقيتْ لكَ بركاتُه إلى يوم القيامة؛ لحظات خُلْد تؤتي أكلَها كلَّ حين بإذن ربها، فَأَكْرِمْ بِهِ من "وَقْتٍ" وأَنْعِمْ!

ذلك أن المناجــاة لله والابتهال -بالدعاء والثناء عليه تعالى- تورث القلب إشــراقا نورانيا خاصا، يجعل العبد شفافَ الروح، صافي الوجدان، يرى بنــور الله.. فإذا به يتدرج -ما داوم على ذلك- عبر مدارج الإيمان نحو منــزلة الولاية حتى يكون ممن أوتي البركةَ والحكمة، من الصّدّيقين والرّبّانيينَ.

سر الإخلاص

فــأَنْ تُناجيَ الله بالدعاء -كما وصفنا- يعني أنك تعبده بصدق، لأن الدعــاء إنما يكون عند "الشــعور بالافتقار" وذلك ســر الإخــلاص، وحقيقة التوحيد؛ ومن هنا لا يمكن للمضطر إلا أن يكون مخلصــا إذا دعا الله جل وعلا علــى الحقيقة؛ نعم، حتى لو كان مشــركا. وإنما يكون إخلاصه للحظة عابرة، هي لحظة "الشــعور الاضطراري بالافتقار إلى الله"، ثم يعود إلى شــركه. وسَــبَبُ ذلك واضحٌ على مســتوى النفس الإنسانية وطبيعتها، فاقرأ إن شئت قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا﴾(الإسراء:٦٧)، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِــفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّــاكِرِينَ ۞ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾(يونس:٢٢-٢٣). ومثله قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِــينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْــرِكُونَ﴾(العنكبوت:٦٥)، والسر في إخلاص المشرك عند الدعاء -ساعةَ الخوف والاضطرار- إنما هو شعوره الصادق بالحاجة إلى الله اضطراراً، فهنالك يَضِلُّ عنه كلُّ ما كان يشــرك به من قبل، ولا يبقى عنده من أمل حقيقي يتعلق به إلا الله.

حقيقة الدعاء

وإنمــا القصد من هذا كله بيان أن الدعاء هو التعبير الصادق عن الاحتياج والافتقار إلى الله؛ فكان بذلك هو أصفى لحظات العبادة لله وأخلصها لوجهه الكريم، والمؤمن الصادق المخلص هو أولى به وأجدر. فسير العبد إلى الله كلُّه دعاءٌ بهذا المعنى.. سواء في ذلك صلاتُه وصيامه وزكاته وذكره وشــكره وخوفه ورجاؤه وسائرُ عمله. كل ذلك إنما حقيقته طلب رضى الله، وابتغاء وجهه جل عــلاه. وما معنى الدعاء غير هذا؟ فلم يبق شــيء من الدين إذن لم يدخل في معنــاه. فلَكَ أن تقول إن الذي لا يدعو ربه -على كل حال- لا يعبده بصدق؛ بما هو لا يمارس العبادة على وجهها الحقيقي، أي تحقيق معنى الافتقار إلى الله في كل شيء، سواء على مستوى الوجدان أو التعبير.

ولذلك كان الدعاء هو جوهر العبادة وروحها. وكان ذلك البيان النبوي البليغ -مــن جوامع كَلِمه ﷺ- مما رواه الصحابي الجليل النعمان بن بشــير ﷺ أن النبي ﷺ قــال: "إن الدّعَاء هو العبَادة" ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْــتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْــتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَــيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(غافر:٦٠)" (أخرجه الأربعة)، ومن هنا تضافرت الآيات، وتواترت الأحاديث في الأمــر بالدعاء، فكان قول الله تعال مما قرأه النبي ﷺ في الحديث

المذكور دالا على وجوب الدعاء على الإجمال، إذ المخالفة مآلها ترهيب كما هو واضح من سياق الآية: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، وعلى هذا يفهم قوله ﷺ: "من لا يدْعُ الله يغضَبْ عليه" (أخرجه الحاكم)، أي بما هو قد استغنى عن الله، فكأنما الحديث تفسير للآية. ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: "سلوا الله كلَّ شيء حتى الشِّسْعَ، فإن الله ﷻ إن لم ييسّره لم يتيسّر".[1] وهو تعبير بليغ عن حقيقة التوحيد وإخلاص الدين لله عقيدةً وعملا.

وليس عبثا أن يقص علينا القرآن الكريم أحوال الأنبياء والمرسلين في تحقيق هذا المعنى العظيم، وينقل إلينا عباراتهم الرقيقة، ومواجيدهم الجميلة، في مناجاة الله، والابتهال إليه رَغَباً ورَهَباً. وإنما كانت تربية سيدنا محمد ﷺ لأصحابه بتعليمهم اللجوء إلى الله في اليسر والعسر تحقيقا لهذا المعنى من الإخلاص والتعرف إلى الله بصدق.

ثم إن العبد إذ يغفل عن ربه تثقل نفسه ويضيق صدره بما يقع له من غرق في أوحال النفس وأدخنة الشيطان، فيحتاج إلى لحظات للتصفية، يجأر فيها إلى الله بالدعاء مستغيثا ومستعينا، حتى إذا انخرط في سلك المواجيد السائرة إلى الله بصدق تدفق عليه شلال الرحمة شفاءً وعافيةً فتنهض روحُه يَقِظَةً قويةً.. تستعيد عافيتها، وتسترد صفاءها بإذن الله. فمن ذا يستغني عن دعاء الله إلا جاهل بالله!؟

الأسماء الحسنى بين التجلي والخفاء

اهتم العلماء كثيرا –سلفُهم وخلفُهم– بقضية الأسماء الحسنى في سياق التعبد بها دعاءً وابتهالا إلى الله جل علاه نظرا لجلال أسرارها وجمال أنوارها، ولمَا ورد في ذلك من الأمر في كتاب الله، من مثل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف:١٨٠)، وقوله سبحانه: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾(الإسراء:١١٠)، وما صح في السنة النبوية الشريفة من قوله عليه الصلاة والسلام: "إن لله تسعة وتسعين اسما –أعطى مائة إلا واحدا– من أحصاها دخل الجنة، إنه وِتْرٌ يحب الوِتْرَ" (متفق عليه)، وفي رواية: "من حفظها دخل الجنة" ورُوِيَ أيضا بصيغة: "إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما –مائة غير واحد– لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر" (متفق عليه). وما ذلك كله إلا لأنها مدخل عظيم للتعرف إلى الله تعالى، والعروج إليه سبحانه عبر مقامات معرفته ومنازل محبته للفوز بكرم ولايته.

المراد بحفظ الأسماء وإحصائها

غير أنه تنتصب بين أيدينا ههنا قضيتان: الأولى تتعلق بمفهوم الحفظ أو الإحصاء الوارد في الحديث، والثانية تتعلق بمسألة عد هذه الأسماء وتعيينها. فأما القضية الأولى –وهي الراجعة إلى المقصود بمعنى الحفظ والإحصاء– فقد سبق لنا كلام عنها في غير هذا الموطن نلخصه كما يلي: وذلك أنه "قد ذهب أغلب العلماء –ما سترى بحول الله– إلى أن "الحفظ" هنا هو بمعنى حفظ المقتضيات من الأفعال والتصرفات، لا حفظ العبارات فقط، كما في قول النبي ﷺ: "احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده اتجاهك" (رواه أحمد والترمذي). والمقصود بحفظ المقتضيات توقيع كل أعمالك وتصرفاتك بما تقتضيه دلالاتها من حدود والتزامات.

فمثلا إذا انطلق العبد في طلب رزقه واكتساب قوته فإنما يفعل ذلك باسمه تعالى "الرزاق"، ومعناه أن يعتقد ألا رزق يصل إليه إلا ما كتب الله له، ثم ألاّ مانع له منه وقد كتبه الله له، ويكون لهذا –إن صح اعتقاده فيه– أثره الإيماني، يجتهد كل يوم في تحصيله، فلا يساوم في دينه مقابل مال، عطاءً أو حرمانا، إذ وجد في معرفته باسم "الرزاق" أنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع. وهو قصد من مقاصد حفظ "الاسم" من أسمائه الحسنى؛ الثبات على ذلك أمام الفتن، لا تزحزحه المضايقات ولا المناوشات ولا التهديدات، ولا تذهب به الوساوس كل مذهب، بل يسكن إلى عقيدته مطمئنا آمنا من كل مكروه، إلا ما كان من قدر الله، موقنا أن الله لا يريد به إلا خيرا. فذلك أمر المؤمن الذي ليس إلا لمؤمن، والمؤمن أمره كله له خير كما في الحديث الصحيح حيث قال عليه الصلاة والسلام: "عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير. وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إنْ أصابته سراء شكر وكان خيرا له. وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له" (رواه مسلم).

إنها عقيدة السلام والأنس الجميل بالله. وبقدر ما تسكن النفس إلى اسمه تعالى "الرزاق" يذوق العبد من معنى "الحفظ" جمالا حميدا، وأنسا جديدا، فتعلو القدم بذلك في مراتب العبودية، وتوحيد الألوهية مقامات أخرى. والربانيون في "حفظ" كل اسم من أسمائه الحسنى –بهذا المعنى– مراتب ومنازل. وبذلك يمتلئ القلب حبا لجمال أنواره وجلال إفضاله تعالى، فيزداد شوقا إلى السير في طريق المعرفة الربانية، التي كلما ذاق منها العبد جديدا



ازداد أنسا وشوقا، فلا تكون العبادة –بالنسبة إليه حينئذ– إلا أنسا، وراحة، ولذة في طريق الله، إذ تنشط الجوارح للتقرب إليه تعالى بالأوقات والصلوات والصيام والصدقات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكرات، والدخول في سائر أعمال البر الصالحات. ولك في أسماء الله الحسنى –من كل ذلك– مسالك تقربك إلى الله سبحانه وتوصلك إليه.

هذا هو الفهم الأليق بحديث الأسماء الحسنى، وهو ما ذهب إليه أغلب شراح الحديث عند تعرضهم لذلك؛ ومن هنا قال ابن حجر رحمه الله في الفتح: "وقال الأصيلي: ليس المراد بالإحصاء عدها فقط لأنه قد يعدها الفاجر، وإنما المراد العمل بها. وقال أبو نعيم الأصبهاني: الإحصاء المذكور في الحديث ليس هو التعداد، وإنما هو العمل، والتعقل بمعاني الأسماء والإيمان بها"[٢]. وقال أيضا: "وهو أن يعلم معنى كلٍّ في الصيغة، ويستدل عليه بأثره الساري في الوجود، فلا تمر على موجود إلا ويظهر لك فيه معنى من معاني الأسماء، وتعرف خواص بعضها (...) قال: وهذا أرفع مراتب الإحصاء. قال: وتمام ذلك أن يتوجه إلى الله تعالى من العمل الظاهر والباطن؛ بما يقتضيه كل اسم من الأسماء".[٣]

ذلك هو الشأن بالنسبة لسائر أسمائه الحسنى: الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن... إلخ. فكلها "حسنى" بصيغة التفضيل المطلقة هذه، أي لا شيء أحسن منها، فهي تبث النور والسلام والجمال، في طريق السالكين إليه تعالى بحفظها، وتملأ قلوبهم إيمانا وإحسانا".[٤]

عَدُّ الأسماء وتعيينها

وأما القضية الثانية وهي الراجعة إلى إشكال عَدّ هذه الأسماء وتعيينها صيغةً وعبارةً، الواحدة تلو الأخرى إلى تمام التسعة والتسعين؛ فإنها محط خلاف بين كثير من العلماء، خاصة وأنه لم يرد في ذلك حديث صحيح يسردها جميعا ويعينها بذاتها، وقد ضعف العلماء ما أخرجه الترمذي وغيره من الحديث الوارد في سردها وإحصائها. إلا أنه لا يكون عبثا أن يكلف الله ورسوله –ندبا أو إيجابا– بأمر مُقَدَّرٍ على وجه التحديد، ويبقى مع ذلك مجملا غير قابل للتطبيق والتحقيق، هذا خُلْفٌ، بل هو ممتنعٌ وجودُه في الشريعة، وهو يتخرج على القاعدة الأصولية القاضية بأنه: "لا يجوز أن يتأخر البيان عن وقت الحاجة".

وأما قوله ﷺ: "إن لله تسعة وتسعين اسما –أعطى مائة إلا واحدا– من أحصاها دخل الجنة" فهو نص في عدد هذه الأسماء، بما يعني أنها أسماء محصورة محددة من بين عدة أسماء أخرى غير مقصودة بالعد ولا الإحصاء في خصوص هذا التكليف. والسياق ههنا قاض بأن العدد "تسعة وتسعين" لا يخرج عن ظاهره بل هو عدد حقيقي مقصود، فقد قال: "أعطى مائة إلا واحدا" لتأكيد ظاهر العدد مما يجعله نصا على معناه بلا منازع. وإذن لم يبق إلا شيء واحد، وهو أن هذه الأسماء موجودة فعلا، يمكن الاشتغال بها دعاءً وتعبداً، وليست من قبيل المجهول غير المبيَّن، وأن الندب مُتَوَجِّهٌ إليها حقيقةً لِمَا عُلم من أن الإتيان بها إحصاءً وعدّا وحفظا ممكنٌ شرعا وعقلا. فأين هي إذن؟

الجواب بسيط: إنها جميعها في كتاب الله، فمن قرأ القرآن كله أدركها قطعا. نعم، المشهور أن ما ورد منها في الكتاب –مما هو متفق عليه– إنما هو نحو الثمانين اسما، على اختلاف في العد.[٥] وهذا راجع إلى قضية معنى "الاسم"، وما المقصود منه؛ هل لابد في عد الأسماء الحسنى وإحصائها من عبارة مفردة على جهة التسمية العَلَمِيَّة؛ أم يمكن في أسماء الله الحسنى بصفة خاصة الوصول إليها عَدّاً وإحصاءً وحفظاً من خلال مفاهيمها ومعانيها دون عباراتها المفردة؟

ذلك ما نرجحه، وهو أن بركة الاسم قد تحصل للعبد من خلال الوصول إلى مفهومه دون عبارته المفردة، لكن على أساس ألا يزعم المرء أن الاسم من الأسماء الحسنى هو هذه العبارة بالذات أو تلك، ولكن له فقط أن يقول: إنه ههنا في هذه الآيات، أي أن مفهومه متضمن فيها، على غرار ما ورد في معنى "اسم الله الأعظم" من النصوص، كما سترى بعد قليل بحول الله. إذ قد تكون حقيقة الاسم من أسماء الله الحسنى مضمنة في عدة آيات أو عدة جمل، وليس بالضرورة في لفظة واحدة مفردة، ويكون ذلك الاسم مما أعطى الله لعباده، أي ضمن التسعة والتسعين.

ولنا في أحاديث رسول الله ﷺ خير دليل، فقد صح في

أحاديث الاسم الأعظم أنه قد يكون عبارة عن عدة أسماء، أو عدة صفات، أو عدة كلمات، أو عدة جمل، في عبارات مختلفة، قد تتداخل معانيها وتتقاطع، وقد تختلف اختلاف تكامل؛ بما يوحي أن للاسم الأعظم عدة تجليات. فمن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: "اسم الله الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب في ثلاث سور من القرآن: في البقرة، وآل عمران، وطه" (رواه ابن ماجه والطبراني).

وقال ﷺ بشيء من التفصيل: "اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾(البقرة:١٦٣)، وفاتحة آل عمران: ﴿الم ۞ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾(آل عمران:١-٢) (رواه أحمد وأبو داود). وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد، الصمد، الذي لم يلد و لم يولد، و لم يكن له كفوا أحد، فقال: "لقد سألتَ الله بالاسم الأعظم، الذي إذا سُئِلَ به أعطَى، وإذا دُعِيَ به أجاب" (رواه أبو داود والترمذي).

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: مَرَّ النبي ﷺ بأبي عياش زيد بن الصامت الزرقي وهو يصلي وهو يقول: اللهم إني أسألك بأنْ لكَ الحمدُ، لا إله إلا أنت، يا حَنَّانُ، يا منَّانُ، يا بديعَ السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، فقال رسول الله ﷺ: "لقد سألتَ الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى" (رواه أحمد وابن ماجه). فهذا كله دال على أن الاسم الأعظم ليس بالضرورة عبارة واحدة، بل قد يكون كذلك، وقد يكون في عدة عبارات من عدة أسماء أو عدة صفات، كما رأيت في النصوص الصحيحة الواردة قبل. ومن هنا نرجح أن بعض الأسماء الحسنى هي أيضا قد تكون لها تجليات شتى في كتاب الله تعالى. وهي غالبا ما تكون واردة في الآيات والسور التي يصف الله فيها نفسه، مما يتعلق بشؤون ربوبيته، وكمال ألوهيته، وعظيم قدرته تعالى، من الخلق والأمر والقيومية والهداية، وما يحق له بعد ذلك على خلقه من إفراده تعالى بالخضوع له والعبودية رَغَباً ورَهَباً؛ مما ورد في سياق الأمر بعبادته توحيدا وتفريدا. كل ذلك وما في معناه مما هو وارد في القرآن الكريم متضمن لأسمائه الحسنى وصفاته العلى. ونحن نرجح أنه ما من اسم من الأسماء المقصودة بالعد والإحصاء والحفظ على ما ورد في الحديث المتفق عليه إلا وهو منصوص عليه في القرآن الكريم، بهذا المعنى الذي ذكرنا للأسماء إن شاء الله. وقد حرص غير واحد من علماء السلف والخلف على استخراجها من القرآن على ترجيح أن سياق الأية: ﴿وَلِلهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾(الأعراف:١٨٠) يفيد أنها كذلك. وإلى هذا ذهب غير واحد من أهل العلم، فقد قال القرطبي في كتابه "الأسنى في شرح الأسماء الحسنى": "العجب من ابن حزم، ذكر من الأسماء الحسنى نيفا وثمانين فقط، والله يقول: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾(الأنعام:٣٨)".[٦]

علماء تتبعوا الأسماء من القرآن

وقال ابن حجر في فتح الباري: "وإذا تقرر رجحان أن سرد الأسماء ليس مرفوعا، فقد اعتنى جماعة بتتبعها من القرآن من غير تقييد بعدد. فروينا في كتاب المائتين لأبي عثمان الصابوني بسنده إلى محمد بن يحيى الذهلي أنه استخرج الأسماء من القرآن. وكذا أخرج أبو نعيم عن (...) محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين: "سألت أبا جعفر بن محمد الصادق عن الأسماء الحسنى فقال: هي في القرآن" وروينا (...) عن حبان بن نافع، عن سفيان بن عيينة الحديث، يعني حديث: "إن لله تسعة وتسعين، أعطى..."، قال: فوعدنا سفيان أن يخرجها لنا من القرآن فأبطأ، فأتينا أبا زيد فأخرجها لنا، فعرضناها على سفيان، فنظر فيها أربع مرات، وقال: نعم هي هذه".[٧]

وقال ابن حجر في تلخيص الحبير: "وقد عاودت تتبعها من الكتاب العزيز إلى أن حررتها منه تسعة وتسعين اسما. ولا أعلم من سبقني إلى تحرير ذلك. فإن الذي ذكره ابن حزم لم يقتصر فيه على ما في القرآن، بل ذكر ما اتفق له العثور عليه منه، وهو سبعة وستون اسما متوالية، كما نقلته عنه، آخرها "الملك"، وما بعد ذلك التقطه من الأحاديث. وقد رتبتها على هذا الوجه لِيُدْعَى بها:

"الإله، الرب، الواحد، الله، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الحي، القيوم، العلي، العظيم، التواب، الحليم، الواسع، الحكيم، الشاكر، العليم، الغني، الكريم، العفو، القدير، اللطيف، الخبير، السميع، البصير، المولى، النصير، القريب، المجيب، الرقيب، الحسيب، القوي، الشهيد، الحميد، المجيد، المحيط، الحفيظ، الحق، المبين، الغفار، القهار، الخلاق، الفتاح، الودود، الغفور، الرؤوف، الشكور، الكبير، المتعال، المقيت، المستعان، الوهاب، الْحَفِيُّ، الوارث، الولي،

القائم، القادر، الغالب، القاهر، البر، الحافظ، الأحد، الصمد، المليك، المقتدر، الوكيل، الهادي، الكفيل، الكافي، الأكرم، الأعلى، الرزاق، ذو القوة، المتين، غافر الذنب، قابل التوب، شديد العقاب، ذو الطول، رفيع الدرجات، سريع الحساب، فاطر السماوات والأرض، بديع السماوات والأرض، نور السماوات والأرض، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام".

[ثم قال:] تنبيه: في قوله "من أحصاها" أربعة أقوال، أحدها: "من حفظها"، فسره به البخاري في صحيحه (...) ثانيها: من عرف معانيها وآمن بها. ثالثها: من أطاقها بحسن الرعاية لها وتخلق بما يمكنه من العمل بمعانيها. رابعها: أن يقرأ القرآن حتى يختمه؛ فإنه يستوفي هذه الأسماء في أضعاف التلاوة. وذهب إلى هذا أبو عبد الله الزبيري. وقال النووي: الأول هو المعتمد. قلتُ[8]: ويحتمل أن يراد من تتبعها من القرآن، ولعله مراد الزبيري".[9]

صحيح أن السنة النبوية ورد فيها من الأسماء الحسنى والصفات العلى الشيء الكثير، مما يربو -إذا أضيف إلى الأسماء المفردة المنصوصة في القرآن- على عدد التسعة والتسعين بكثير. ولذلك فقد وقع الخلاف في أيها المقصود بالإحصاء -في الحديث المذكور- مما لم يقصد، بيد أن منهج القرآن قائم على أن عظائم الأمور من أمهات الفضائل وأمهات الرذائل؛ يكون عادة مما نص عليه الله -جل علاه- في القرآن. وإنما يرد في السنة تفصيل طريقة العمل به، أو بيان فضله. وبما أن القرآن هو أعظم كتاب في التعريف بالله ربا وإلها -وتلك من أهم مقاصده العظمى- فلا يعقل أن يخلو من أمهات الأسماء الحسنى، لاسيما وأن الله ﷻ نصَّ في غيرما موطن من كتابه على أهميتها، وعلى طلب الدعاء بها كما مر في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(الأعراف:١٨٠).

فإذا قيل أين هي؟ قلنا إنها فيما نص الله تعالى عليه من الأسماء المفردة في القرآن، من مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۞ هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(الحشر:٢٢-٢٤)، ثم إنها أيضا حاضرة في كل آية وصف الله تعالى بها نفسه، إذْ كل ذلك أيضا متضمِّن لمعنى الاسم، كما في قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(آل عمران:٢٦-٢٧).

فهذه الآيات العظيمة متضمنة لعدد من مفاهيم الأسماء الحسنى، وهي وإن لم ترد بصيغ عَلَميّة أو عبارات مفردة إلا أنها عميقة الدلالة جدا على عرض جانب من عظمة الله تعالى وكمال قدرته على كل شيء.بما يحيل على مفاهيم لأسماء حسنى واردة على سبيل العَلَميَّة الصريحة في مواطن أخرى من الكتاب والسنة كأسمائه تعالى: "المالك، والملك، والحي، والقيوم، والقدير، والقادر، والخالق، والرزاق" ونحو ذلك كثير...

فمن سأل الله بمثل هذه المواطن من القرآن مُضَمِّناً في دعائه نصوصَ الآيات -كما مر في بعض أحاديث الاسم الأعظم الثابتة- أدرك الأسماء الحسنى المقصودة جميعا إن شاء الله. ومن أضاف إلى ذلك ما صح من السنة النبوية من الأسماء كان -بإذن الله- أعمَّ وأشمل وأحوط لمن قصد إحصاءها إحصاءً وإن لم يكلف نفسه عناء العد الحرفي والاستقراء اللفظي. فإذا بنى ذلك كله على ما ذكره الشراح من معنى الحفظ -بما هو التحقق والتخلق بمقتضياتها- رَجَا أن ينال وعد رسول الله ﷺ من الفوز بالجنة، وإنما الموفق من وفقه الله. ■

(*) جامعة مولاي إسمعيل / المغرب.

الهوامش

(1) قال الألباني: "أخرجه ابن السني رقم: ٣٤٩، بسند حسن". والشِّسْع: أحد سُيُور النعل، مما يعقد به.

(2) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ٢٢٦/١١، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب.

(3) فتح الباري، ٢٢٦/١١- ٢٢٧.

(4) بلاغ الرسالة القرآنية للمؤلف: ٥٣-٥٥.

(5) عدها الشيخ العثيمين رحمه الله في كتابه (القواعد المثلى) "واحدا وثمانين اسما" بإضافة اسم "الحفي" أخذا من قوله تعالى حكايةً لقول إبراهيم لأبيه: ﴿قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾(مريم:٤٧). وواضح أن سياق الآية لا يسعف في الدلالة العَلَميّة على هذا اللفظ لعدم إطلاقيته. وقد تردد فيه ابن حجر من قبلُ رغم عده إياه.

(6) نقلا عن تلخيص الخبير في أحاديث الرافعي الكبير، لابن حجر العسقلاني، ١٧٣/٤، تحقيق عبد الله هاشم اليمني المدني. ط. ١٩٦٤/١٣٨٤، المدينة المنورة.

(7) فتح الباري: ٢١٧/١١.

(8) القول لابن حجر.

(9) تلخيص الحبير: ١٧٣/٤-١٧٤



اللذة والألم
في فكر بديع الزمان النورسي

د. محمد كنان ميغا *

إن مما لا يقبل الجدال ولا النـــزاع أن الله تعالى خلق الكون كله على المتقابلات كاللذة والألم، والمصلحة والمفســـدة، والصحة والمرض، والغنى والفقر، والسعادة والشـــقاء، والحياة والموت.. إلخ. وإن الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله قد نهج في تحليلاته للآيات القرآنية في رســـائله هذا النهج التقابلـــي الذي هو منهج القرآن الكريم نفســـه، ويؤكد ذلك قوله في الخطبة الشامية: "إن رسائل النور التي هي تفســـير حقيقي للقرآن الكريم، ببيان إعجاز معانيه الجليلة، تُبيّـــن أن في الضلالة جحيما معنويا في هذه الدنيا، كما تثبـــت أن في الإيمان نعيما معنويا في الدنيا أيضا، وهي تبرهن أن في المعاصي والفساد والمتع المحرمة آلاما معنوية مبرّحة، كما أن في الحســـنات والخصال الحميدة والعمل بالحقائق الشرعية لذائذ معنوية أشبه ما تكون بملذات الجنة".

حياة المؤمن لذة ومصلحة وسعادة

إنّ بديع الزمان سعيد النورسي يَعتبر الحياة كلها بالنسبة للمؤمن لذة ومصلحة وسعادة، وأنها بالنسبة إليه صورة مصغرة من نعيم الجنة، وأن الحياة كلها ألم بالنسبة للكافر المعاند، وإن بدا للناظر أنه في ســـعادة ولذة؛ لأنها سعادة ولذّة موهومة لا حقيقية، ولذة قليلـــة فانية، فهو وإن بدا عليه آثار الســـعادة إلا أنه شـــقي في أعماقه. ويبيّن النورسي رحمه الله ذلك بقوله: "إنّ نوازع الإنسان

وأحاسيســـه المادية لا ترى العقبى، فتفضّل درهما من لذة عاجلة على قنطار من لذات آجلة. هذه الأحاسيس قد طغت -في هذا العصر- على عقل الإنســـان وسيطرت على فكره؛ لذا فالسبيل الوحيد لإنقاذ السفيه من ســـفهه، هو الكشف عن ألمه في لذاته نفســـها". فلذّات الدنيا -إذن- مهمـــا بلغت فهي قليلة جدا في مقابلة اللـــذة الحقيقية التي هي لذة الجنة الأبدية. ولا شـــك أن العاقـــل إذا خير بين لذة آنيّة، ولذة لا حدود لها، فإنه ســـيختار اللذة الدائمة، وهذا ما قرره الأســـتاذ النورســـي في هذا النص. ويقول أيضا: "إن أهل الضلالة يعيشون في جهنم في هذه الدنيا، وإن أهل الهداية يذوقون لذائذ الجنـــة في هذه الدنيا أيضا (...) وإن الإيمان بذرة معنوية من بـــذور الجنة، والكفر نواة من نوى زقّوم جهنّم".

إنّ المتتبع لرســـائل النور يجد أنه لا يخلو فقرة من فقراتها من هـــذا النوع من التقابل، إما بين أهـــل الهداية وأهل الضلالة، أو بين الجنة والنار، أو بين الســـعادة والتعاسة، أو بين الحياة الدنيا والآخرة، أو بين اللذة والألم موضوع المقال.

مفهوم اللذّة والألم

اللذة عبارة عن المنفعـــة والمصلحة، وما يؤدي إليهما. والمصلحة هي المحافظة على مقصود الشـــرع كما قـــال الإمام الغزالي في المستصفى. ومقصود الشرع في الخلق هو أن يحفظ عليهم دينهم ونفســـهم وعقلهم ونســـلهم ومالهم، فكل ما يؤدي إلى حفظ مقصود الشـــرع في الخلق فهو لذة ومنفعة ومصلحة؛ وذلك أن اللذة الحقيقية لا توجد إلا في الكون مع الله ﷻ خالق اللذات.

يقول الرازي في تعريـــف المنفعة والمضرة: "المنفعة عبارة عن اللـــذة أو ما يكون طريقا إليها، والمضـــرّة عبارة عن الألم أو ما يكون طريقا إليه".

ويقول العز بن عبد الســـلام: "والمصالح أربعة أنواع: اللذات وأســـبابها، والأفراح وأســـبابها. والمفاســـد أربعة أنواع: الآلام وأسبابها، والغموم وأســـبابها. وهي منقسمة إلى دنيوية وأخروية (...) ومن أفضل لذات الدنيا لذات المعارف وبعض الأحوال". فلـــذات الدنيا ما هـــي إلا صور للذات الآخـــرة التي هي اللذة الحقيقية، كمـــا أن آلام الدنيا ما هي إلا صور بالنســـبة للآلام الأخروية، وأفضل لذات الدنيا هي اللذات المكتســـبة عن طريق الإيمان بـــالله ﷻ، ولهذا قال النبي ﷺ: "حبـــب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة" (رواه النسائي وأحمد). وكان عليه الصلاة والســـلام كلما حزبـــه أمر فزع إلى الصلاة، فيقول: "يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها" (رواه أبو داود).

يقول الأســـتاذ النورســـي: "إن كل لذة ومتعة خارج نطاق الشرع، فيها ألف ألم وألم (...) فمن كان يريد السرور الخالص الدائـــم والفرح المقيم في الدنيا والآخـــرة، عليه أن يقتدي بما في نطاق الإيمان من تربية محمد ﷺ".

اللذّة وأقسامها في فكر الأستاذ النورسي

إنّ اللذة في فكر الأســـتاذ النورسي منقسمة إلى لذة دنيوية ولذة أخروية، وإن لـــذات الدنيا التي تظهـــر في بديع صنع الله تعالى في الكون وفي الحياة من جمـــال ولطافة في المصنوعات، ولذة في الأطعمة، وبهاء في الألبســـة، ورفاهة في المركوبات.. "كل ذلك يُظهر ســـخاء وَجودا لا حد لهما، فلابد أن يكون لمثل هذا الجود والسخاء المطلقين، ولمثل هذه الخزائن التي لا تنفد، ولمثل هذه الرحمة التي وسعت كل شيء، دارُ ضيافة، ومحل سعادة خالدة يحوي ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وتستدعي -قطعا- أن يخلد المتلذذون في تلك الدار، ويظلوا ملازمين لتلك السعادة ليبتعدوا عن الزوال والفراق؛ إذ كمـــا أن زوال اللذة ألم فزوال الألم لذة كذلك... وإلا فاللذة اليسيرة -التي ينغصها الزوال والفراق- في هذه الفترة الوجيزة لا يمكن أن تنســـجم ومقتضى هذا الجود والســـخاء".

فالنورســـي رحمه الله يبين في هذا النص أن لذات الدنيا هي لذات قليلة وقصيرة الأجل فلا ينبغي للعاقل أن ينحاز إليها بكليته؛ وذلك أنها لذات ســـاعة تتضمن آلام ساعات؛ لأنها ستفارق بلا شك، وفراق اللذة ألم مرير. وها هو يؤكد ذلك في موضع آخر بقوله: "وستفهم أن التزيينات في هذه الدنيا ليست لأجل التلذذ والتمتع فحســـب، إذ لو أذاقتك اللذة ساعة أذاقتك الألم بفراقها ساعات وساعات، فهي تذيقك مثيرة شهيتك دون أن تشبعك، لقصـــر عمرها أو لقصر عمرك، إذ لا يكفي للشـــبع. إذن فهذه الزينة الغالية الثمن والقصيرة العمر هي للعبرة وللشـــكر وللحض على الوصول إلى تناول أصولها الدائمة ولغايات أخرى سامية".

الطريق إلى اللذّة

إن الإيمان بالله وحده هو الذي يضمن للإنســـان لذة وســـعادة ممهدة إلى الســـعادة واللذة الدائمة في الجنـــة، "ولهذا نجد المؤمن بالآخرة يتمتع بسعة النفس وبُعد الرؤية وتفاؤل في التحليل، ومن ثم اطمئنـــان في القلب، وتجد في المقابل صدر الكافر ضيقا حرجا كأنما يصّعّد في السماء، متشـــائما حائرا خائفا مضطربا، يخشى فوات لذة الدنيا الفانية لأنـــه لا يؤمن بلذة الآخرة الباقية". قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَـــةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾(طـه:١٢٤) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾(الزخرف:٣٦).

نعـم، إن أهل الإيمان يتمتعون في هـذه الحياة الدنيا بنفوس منشـرحة وصدور رحبة، وكل حياتهم سعادة، "ويشعرون بلذة عميقة حقيقية راسـخة، بينما أهل الضلالة سـيتأجج في قلوبهم جحيم معنوي يعذبهم بلظاه حتى لو تمتعوا بمباهج الدنيا ولذائذها، بيد أن الغفلة وحدها هي التي تحول دون استشعارهم ذلك العذاب الأليم". وهذا الإيمان يقتضي القناعة والمحبة والرحمة والشـفقة والكرم وغيرها من الصفات الذاتيـة الحقيقية التي تنبع منها لذة حقيقية. فمن أراد أن يتمتع بلذة الدنيا، والتنعم بسـعادتها، فإن اللذائذ المشـروعة تغنيه عن كل شيء، فهي كافية لتلبية رغباته. يقول النورسـي: "إنّ الذوق الحقيقي، واللذة التي لا يشوبها ألم، والفرح الذي لا يكدره حزن، والسعادة التامة في الحياة، إنما هي في الإيمان، وفي نطاق حقائقه ليس إلا".

إن الغالب على لذات الدنيا أنها لذات نسبية تتأثر بأضدادها، فإذا انتفت تلك التأثيرات قلّت اللذة؛ بينما اللذة الحقيقية –وهي تلك التي تكوّنت من الإيمان– فإنها لذة بلا ألم، لأنها لا تبنى على تصور غيرها، بل هي لذة موجودة بذاتها. يقول النورسي: "اعلم أن اللذة الحقيقية إنما تنبع من شهية حقيقية، وأن الشهية الحقيقية الصادقة تنبع من حاجة حقيقية صادقة، وفي هذه اللذة –الكافية للإنسان– يتساوى السلطان والشحاذ".

والناس متفاوتون في شعورهم باللذة والمتعة، وذلك "أنه بمقدار تيقظ القلب، وحركة الوجدان، وشعور الروح، تزداد اللذة والمتعة".

الألم وأنواعه في فكر الأستاذ النورسي

إن الألم ينقسـم إلى دنيوي وأخروي مثلما أن اللذة تنقسم إلى دنيوية وأخروية، وآلام الدنيا أصناف كثيرة، منها: "آلام الماضي، وغصص الزمن الحالي، ومخاوف المسـتقبل وأوهام الزمان الآتي، والآلام الناتجة من زوال اللذات؛ وذلك أن زوال اللذة مثلما هو ألم، فتصوُّر زوال الألم كذلـك ألم مثله". فإذا كانت منغصات الحياة تدخل على الإنسـان غالبا من قِبل آلام الماضي ومخاوف المسـتقبل وأوهام الزمـان الآتي، فلا ينبغي للعاقل أن يشـتت ذهنـه من أجـل آلام في عداد المعدوم، بل عليـه أن يُقبل على يومـه بإصلاح حاله فيه جاعلا نصب عينيـه قوله عليه الصلاة والسـلام: "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبـدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا" (أخرجه البيهقـي). ففي هذا الحديث حث على الزهد في هذه الحياة، وذلك أنّ الإنسـان لو كان خالدا في هذه الحيـاة الدنيا لما حـزن على ما فاته، ولا جزع لما يسـتقبل من أيامـه، لأنه يعرف أن ما فاته أمس سيسـتدركه غدا؛ وكذلك لو علم الإنسـان أنه سيموت غدا سـيزداد في القرب من ربه بـكل ما أوتي من قـوة. ولهذا يقول النورسـي: "إنه لا ألم من غير شـيء، ولا يرد من العدم ألم.. فمـن البلاهة إظهار الجزع ونفاد الصبر الآن من سـاعات آلام ولـت، ومن آلام لم تأت بعد، على أنّها جميعا في عداد المعدوم. نعم، إن الإنسـان إن لم يشـتت قوة صبره يمينا وشمالا –إلى الماضي والمستقبل– وسددها إلى اليوم الذي هـو فيه، فإنها كافية لتحل له حبال المضايقات".

إن الآلام الدنيوية بالنسـبة لأهل الهداية هي عين اللذة، وإن الانقطاع هو عين الوصال، يقول النورسـي: "فالآلام والمصائب كلهـا أعمال صالحة سـلبية اضطرارية كمـا ورد في الحديث الشريف، وفيه سلواننا". يريد بالحديث الشريف قوله ﷺ: "عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سـراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له" (رواه مسـلم). فالآلام التي تعترض طريق المؤمنين في هذه الحياة، ما هي إلا مصفاة تصفي نفوسهم وتنقيها من بقايا أدرانها وأخطائها، يقول الأسـتاذ أديب إبراهيم الدباغ: "فالآلام رغم قسوتها هي جمال، لأنها طريق النفوس إلى الصفاء والنقاء. والصفاء والنقاء هو الجمال كل الجمال، وما من ألم أو حزن يصيب المؤمن إلا وهو خير له، لأنه يزيد في خصب روحه وقوتها. فالسـجون والزنزانات والمنافي هي مدارس يوسـفية كما يصفها النورسي".

الطريق إلى الألم

لقد تقـدم أن الطريق إلى اللذة هو طريق الإيمان بالله ﷻ، الذي يقتضي القناعة والرحمة والشفقة والكرم وما شاكلها. وإذا علمنا أن الألم ضد اللذة، فأضداد هذه الصفات —إذن– هي الطريق إلى الألم. ولهذا يرى النورسي أن الكفار وأرباب الضلالة يعيشون في جحيم، وإن بدا للناظـر أنهم يتمتعون بنعيم الدنيا، فيقول: "فلا جرم أن أولئك الضالين وأرباب السـفاهة والمجون سيتأجج في قلوبهم جحيم معنوي يعذبهم بلظـاه حتى لو تمتعوا بمباهج الدنيا ولذائذها، بيد أن الغفلة وحدها هي التي تحول دون استشعارهم ذلك العذاب الأليم". إن الخروج عن نطاق الشرع يورث آلاما لا حدود لها، فكما أن الآلام بالنسبة للمؤمن هي عين اللذة، فاللذة بالنسـبة للكافر هي عين الألم. فالحياة بـلا إيمان حياة بلا طعم ولا لذة، حياة تسودها الآلام والأحزان والهموم، وفي هذا يقول النورسي: "فالحياة إن كانت خالية من الإيمان، أو فقد الإيمان تأثيره

فيها لكثرة المعاصي، فإنها مع متاعها ولذاتها الظاهرية القصيرة جدا تذيق الآلام والأحزان والهموم أضعاف أضعاف تلك المتع والملذات". إن الإنسان الذي يفقد لذة الإيمان سيعيش قلقا أبديا وهموما لا نهاية لها، لأنه سيجزع لماضيه ويتحسر عليه، ويشتت ذهنه في المستقبل المجهول، ويرى المصير إلى القبر نهاية اللذات.

إن اللذة والألم صفتان متقابلتان، فقدان إحداهما يؤدي إلى الشعور بالأخرى، وهذه هي سنة الله تعالى في الخلق.

فاللذة عبارة عن المنفعة والمصلحة، والطريق إليها الإيمان بالله تعالى، والتحلي بصفات الرحمة والشفقة والجود والكرم والعفة والقناعة، وبمقدار تيقظ قلب المرء تزداد نسبة شعوره باللذة الحقيقية. أما الألم فهو عبارة عن المضرة والمفسدة، والطريق إليه الكفر والضلال، والتلبس بصفة الظلم والبخل، والتفسخ الخلقي.

وقد رسم النورسي في كليات رسائله منهجا نوريا استوحاه من القرآن الكريم، يضمن لسالكه لذة لا يشوبها ألم، وسعادة لا يعارضها شقاء. وبهذا المنهج استطاع أن يحول السجن إلى مدرسة إيمانية، سماها "المدرسة اليوسفية". وإن هذا المنهج الذي استطاع أن يحول آلام السجون إلى لذات إيمانية، لَقَمِن بأن يحول كل آلام الدنيا إلى لذات، وهموم الدنيا إلى أفراح؛ وذلك أن آلام الدنيا مهما بلغت فهي آلام ساعة، كما أن لذاتها لذات ساعة تتضمن بالنسبة للكافر آلام ساعات لا نهاية لها. هكذا صور النورسي حال المؤمن وحال الكافر في هذه الحياة الدنيا الفانية. ■

(*) الجامعة الإسلامية / النيجر.

المصادر

(١) الخطبة الشامية، لبديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، القاهرة.

(٢) الكلمات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، القاهرة.

(٣) البعد الروحي في رسائل النور، تأليف: أ.د. خالد الصمدي، دار سوزلر، القاهرة.

(٥) التربية السلوكية عند بديع الزمان سعيد النورسي، لأديب إبراهيم الدباغ، شركة النسل للطباعة، إسطنبول.

(٦) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٧) المحصول، لفخر الدين الرازي، تحقيق: طه جابر العلواني، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.



بشارة

رافلةً بالحسن كنتِ،
بالأمن مفعمةً، بالسعادة مترعةً،
وفجأةً، انقلب كلُّ شيء،
فالإنسان الوديع توحّش،
والحروب استعرت،
والأرض بالدماء اصطبغت...
وفي الآفاق من بعد ذلك بدت حمامة،
في منقارها غصن زيتون،
أظنها بشارة سلام،
عن قريب على الأرض سيعمّ...

* * *

إنهم ينتحرون

أ.د. عماد الدين خليل*

و"ويليام ستيرون" من أكثر الكتاب الأميركيين المعاصرين شهرة، وهو مؤلف رواية "اختيار صوفي" التي وصل رقم مبيعاتها إلى إحدى عشرة مليون نسخة، وقدمتها السينما بالعنوان ذاته.

ويليام أراد أن يضع حدا لحياته ويضم اسمه إلى قائمة الأدباء المنتحرين أرنست همنغواي وفرجينيا وولف ورومان غاري وجاك لندن وهنري مونترلان وستيفان زفايغ ويوكيو ميشيما..

كآبة حادة كادت أن تقود ستيرون إلى حافة الجنون. وبعد أن برئ من أوهامه وهواجسه تماما، تحدث عن الكابوس المخيف الذي سيطر على عقله وحياته، إنه مرض ليس من السهل تفسيره أو فهمه. هاجس غريب وطارئ قد يصيب أي شخص دون تمييز لعمر أو جنس أو مستوى اجتماعي وثقافي، إلا أن الشيء الأكيد أنه يصيب النساء أكثر من الرجال. لا أحد يمكن أن يَفهم "سر" هذا المرض إلا الذي وقع في مصيدته والذي قد يقوده للتفكير بالانتحار وهو تصرف مخجل وسري جدا، لأنه ينطوي على أبشع أنواع العقاب.

ويليام ستيرون فكر جديا بالانتحار. وبين تفكيره وحيرته باختيار الوسيلة الأكثر ملائمة لإزهاق روحه، كانت ذكريات الأيام الحلوة تهاجمه من كل زاوية من زوايا المنزل، وتتردد على مسامعه ضحكات أبنائه وزوجته ليعدل في النهاية عن الفكرة التي استحوذت أياما طويلة على عقله، وقرر أن يستبدل الانتحار بالعلاج ليتابع مسيرة حياته.

لماذا أردتَ الانتحار؟

ويكون الجواب:

- "الكحول"، أو بالأحرى "الإدمان على الكحول" هو السبب الرئيسي. هو الذي قادني إلى هذه المرحلة من اليأس الذي فقدتُ معها الرغبة في الحياة.

هذا ما حدث لأدباء أمريكا السابقين أونيل همنغواي



وفوكنر... الجميع كان يلجأ إلى الكحول لعله يمنحه الهدوء والراحة لأعصابه ولتدفعه إلى الكتابة والإبداع.

– الكأس مهمتنا جميعا ولكن يبدو أننا لم نحسن الاختيار.

هذه هي النخبة العليا في بعض المجتمعات الغربية.. سقفها العالي.. وهي رغم ما يغمرها من ضوء ويحيط بها من تكريم وتقدير، تريد أن ترحل عن الدنيا بصمت. ما الذي يستطيع المرء أن يقوله إزاء هذا كله سوى أن الإنسان المنقطع عن التبصر الديني سيصل إلى طريق مظلم مسدود مهما أحاطت به الأضواء ومنح من تكريم. وكأنه يتساءل، وقد تضاءلت الدنيا أمام عينيه وتكومت تحت قدميه:

"ثم ماذا بعد؟ ماذا بعد الشهرة والغنى والمكانة والتكريم والأضواء وإشباع الحاجات الأساسية إلى حد التخمة؟! إنه الفراغ المخيف والطريق المسدود والنهاية المفجعة المدومة فوق الرؤوس".

وأتذكر مقولة الأديب الفرنسي الوجودي المعروف "البيركامي": "ما دمنا سنموت فليس لأي شيء معنى".

إنه الإحساس المكتظ بالعبثية واللاجدوى.. فليس ثمة قبل الموت وبعده سوى الأشياء ونقائضها.. الحياة المكثفة والعدم.. حلقة مفرغة لا يستطيع الإنسان كسرها والخروج منها مهما حاول. ومن ثم – وكسعي للخروج من دائرة العذاب– يلجأ الإنسان إلى الانتحار لكي يختصر الرحلة المعذبة.

ها هنا تبرز قيمة الدين.. قيمة الإيمان بالله وبالغيب واليوم الآخر.. فهذه وحدها هي التي تكسر الحلقة المفرغة وتفتح الطريق المسدود وتصل الدنيا بالآخرة وتمنح الحياة البشرية طعمها العذب وأملها ويقينها، ذلك الذي اغتاله بعض الملاحدة فحكموا بالإعدام على الإنسان وألجأوه إلى قتل نفسه.

ويتذكر المرء كيف أن الإنسان في المنظور الإسلامي هو أغلى كائن في هذه الدنيا، وأن من قتله بغير نفس أو فساد في الأرض –كما يؤكد القرآن الكريم– فكأنما قتل الناس جميعاً، وأنه بتعبير الرسول ﷺ "بنيان الله في الأرض ملعون من هدم بنيانه"..

ها هنا تبرز قيمة الدين!.. قيمة الإيمان بالله وبالغيب واليوم الآخر.. فهذه وحدها هي التي تكسر الحلقة المفرغة، وتفتح الطريق المسدود، وتصل الدنيا بالآخرة، وتمنح الحياة البشرية طعمها العذب وأملها ويقينها..

ويتذكر جملة الأحاديث الشريفة التي تدعو إلى حماية الدم البشري وتندد بالانتحار باعتباره رفضا لنعمة الله سبحانه وعقوقا لسخائه وكرمه وعطاياه.. ويتذكر بعض تلك الأحاديث:

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكينا فحز بها يده فما رقأ الدم حتى مات. قال الله تعالى: بادرني عبدي بنفسه، حرمت عليه الجنة" (رواه البخاري ومسلم وابن ماجه).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من قتل نفسه بحديده فحديدته في يده يتوجأ بها بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا". (رواه البخاري والترمذي). وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "ألا من قتل نفسا معاهدا له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمته الله فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفا" (رواه الترمذي وابن ماجه).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل" (رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه). وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: وجدت امرأة مقتولة في بعض تلك المغازي، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان (متفق عليه).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار" (رواه الترمذي).

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه" قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: "يتعرض من البلاء لما لا يطيق" (رواه الترمذي وابن ماجه). وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا" (رواه النسائي).

وهذا يكفي. ■

(*) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.



السلطان أورخان غازي — السلطان عثمان غازي

رجل من صناع التاريخ

أورخان غازي

أ.د. الصفصافي أحمد القطوري*

هـو "أورخان بن عثمان الغازي" ثاني أبناء الأمير "عثمان" مؤسس الدولة العثمانية، وهو ثاني سلاطين آل عثمان. وُلد في الأول من محرم ٦٨٧هـ، ٦ من فبراير ١٢٨٨م، وكان أبوه "عثمان" حريصا على إعداده لتولي المسؤولية ومهام الحكم. فكان كثيرا ما يعهد إليه بقيادة الجيوش التي يرسلها لفتح بلاد الروم، كما حدث في سنة (٧١٧هـ، ١٢١٧م) عندما أرسله لحصار مدينة "بورصة" (مدينة في آسيا الصغرى)، فحاصر أورخان القلاع المحيطة بها، وظل محاصرا لها قرابة عشر سنوات، ولما تأكد حاكمها أنها أصبحت في قبضة أورخان سلَّمها إليه، فدخلها دون قتال سنة (٧٢٦هـ، ١٣٢٥م)، ولم يتعرض أورخان لأهلها بسوء مما جعل حاكمها يعلن إسلامه، فمنحه أورخان لقب "بك".

ولم يكد أورخان يتمُّ فتح مدينة "بورصة" حتى استدعاه والده الذي كان على فراش الموت ولم يلبث أن فارق الحياة بعد أن أوصى له بالحكم من بعده في (٢ من رمضان ٧٢٦هـ، ٢ من أغسطس ١٣٢٥م) وأوصاه وصيَّة تاريخية جاء فيها:

"يا بني!.. أَحِط من أطاعك بالإعزاز، أنعم على الجنود.. لا يَغُرَّنك الشيطان بجندك ومالك.. إياك أن تبتعد عن أهل الشريعة. يا بني!.. إنك تعلم أن غايتنا الأسمى هي إرضاء رب العالمين.. وبالجهاد يعلو نور ديننا الحنيف، وترفرف راياته في كل الآفاق، فتحدث مرضاة الله جَلَّ جَلَالُه. يا بني!.. اعلم أننا لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحرب شهوةً في الحكم أو سيطرة أفراد.. فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت.. وهذا يا ولدي ما أنت أهل له".

ولم يعارض علاء الدين، الابن الأكبر لعثمان غازي هذه

الوصيــة، بل قبلها مقدمــا الصالح العام علـى الصالح الخاص، بالإضافــة إلى أنه كان يميل إلى العزلة ودراســة الفقه، في حين اتصف أورخان بالشجاعة والإقدام.

ولقد نفذ الســلطان أورخان وصية والده أحسن تنفيذ؛ أقام أول جامعة إســلامية في الدولة، وأول جيــش نظامي. وعندما تولى الســلطة نقل مقر الحكومة إلى مدينة "بورصة" الشــهيرة لحسن موقعها، وجعلها عاصمة لدولته، وبنى بها جامعا ومدرسة وتكية يقدم فيها الطعام للفقــراء والغرباء، كما ولى أخاه علاء الدين"الصدارة العظمى (رئاســة الوزراء). فاختص علاء الدين بتدبير الأمور الداخلية، وتفرغ أورخــان للفتوحات الخارجية، وبهــذا يُعد علاء الدين أول وزير في تاريخ الدولة العثمانية. فأمر بضرب النقود الفضية باســم أورخان، وكان أحد وجهي العملة يحمل عبارة "خلَّد الله ملكه"، والوجه الآخر يحمل اسم الأمير.

وفيما يتعلق بتنظيم الجيش، فقد حرص السلطان أورخان في بادئ الأمر على تأليف جيش من الأتراك أنفسهم، وكانت الدولة تدفع لهم الرواتب، ولكن هذه الخدمة العســكرية –التي لم يكن للأتراك عهد بها من قبل– حملت الناس على المغالاة في مطالبهم، فاقترح "جاندرلي" –الذي يعرف بــ"قَرَهْ خليل"، وهو أحد قواد الجيش– إحياء التشــريع الإسلامي الذي يقضي بأن يحتفظ بيت مال المســلمين بخمس الغنائم، وعزل الأولاد من أسرى الحرب، وتربيتهم تربية إســلامية خالصة تحثهم على الجهاد في سبيل الله. فوافق الســلطان أورخان على هذا الاقتراح، وأعجب به، ودعا إلى تنفيذه، وإعداد هذا الجيش الجديد.

وأما مدة حكم أورخان فتنقســم إلى فترتين؛ الأولى من سنة (٧٢٦هـ، ١٣٢٥م إلى ســنة ٧٤٣هــ، ١٣٤٢م). وفيها اهتم بتوطيد دعائم الحكم العثماني في "آســيا الصغرى"، وإنشاء الجيش الجديد "الإنكشــاري"، وتأسيس الدولة. والثانية من سنة (٧٤٣هـ، ١٣٤٢م إلى سنة وفاته ٧٦١هـ، ١٣٥٩م). وكان يستعد فيها لتثبيت قدمه في "شــبه جزيرة تراقيا"، و"مقدونيا"، ونشر ســلطانه على أرض أوروبا. وقد تمكن أورخان أيضا من فتح "جزيرة بيثنيا"، وقلعــتي "سمندرة" و"آيدوس"، وهما قلعتان إستراتيجيتان تحرسان الطريق الحربي الواصل بين "القسطنطينية" – عاصمة الإمبراطورية البيزنطية آنذاك و"نقومكيدية" التي فتحها أورخان في ســنة (٧٢٧هـ، ١٣٢٦م). ثم تمكن من فتح بلاد "قره سي" في سنة (٧٣٦هـ، ١٣٣٥م)، وكانت معاملته الطيبة لأهل هذه المدن سببا في اعتناقهم الإسلام.

ولَمَّا اتسع ملك الدولة العثمانية، تفرَّغ أورخان لترتيب البلاد وتنظيمها، وسنَّ القوانين اللازمة لاستتباب الأمن، وانتشار العمران في أنحاء الدولة العثمانية كافة. وعندما زار الرحَّالة المعروف "ابن بطوطة" بلاد الأناضول في فترة حكم الســلطان أورخان وقابله هناك، قال عنه: "إنه أكبر ملوك التركمان، وأكثرهم مالا وبلادا وعســكرا، وإن له من الحصون ما يقارب مائة حصن، يتفقدها ويقيم بكل حصن أياما لإصلاح شؤونه".

وبفتح إمارة "قره سي" اقترب أورخان من الإمارات الأوربية التابعة للإمبراطورية البيزنطيــة، فدخلت مدن الثغور البحرية في طاعته صيانة لتجارتها، كما اســتنجد الإمبراطور البيزنطي "جان باليولوج" بالســلطان أورخان، وأرســل إليه سنة (٧٥٦هـ، ١٣٥٥م) يطلب إليه الدعم والمساعدة لصد غارات ملك الصرب "إستيفان دوشان" الذي أصبح يهدد "القسطنطينية" نفسها. فأجاب أورخان طلبه، وأرســل إليه جيشــا كبيرا. لكن "دوشان" ملك الصرب عاجلته المنية، فعاد العثمانيون من حيث أتوا دون قتال.

ولَمَّا تيقن العثمانيون –بعد عبورهم للشــاطئ الأوربي– من حالة الضعف والانحــلال التي حلَّت بالإمبراطوريــة البيزنطية، شــرع أورخان في تجهيز الكتائب ســرا، لاجتياز البحر وفتح بعــض النقاط على الشــاطئ الأوربي، لتكــون مركزا لأعمال العثمانيــين في أوروبا. وفي ســنة (٧٥٨هــ، ١٣٥٧م) أمر الســلطان أورخان ابنه سليمان بعبور مضيق "الدردنيل"، وكان معه أربعون من أشــجع جنوده، فتمكنوا من الاستيلاء على ما كان بها من الســفن والقوارب، وعادوا بها إلى الضفة الشرقية، حيث حشــدوا فيها ٣٠ ألف جندي، تمكنوا من دخول مدينة "تزنب". كما ســاعدتهم الظروف على فتــح مدينة "غاليبولى" –التي تبعد عن القســطنطينية بحــوالي (٨٦,٥) ميلاً– إثر زلزال أصــاب المدينة، فدخلهــا العثمانيون، وفتحــوا على عدة مدن أخرى، منها "أبســالا"، و"ردوستو"، وبنوا العديد من المساجد.

وتوفي الأمير "سليمان" سنة (٧٦٠هـ، ١٣٥٩م)، وفي العام التالي (٧٦١هـ، ١٣٦٠م) توفي السلطان أورخان، والذي يُعَدُّ أول ســلطان عثماني امتد ملكه إلى داخل أوروبا. وكانت مدة ملكه خمسا وثلاثين سنة. وكان رحمه الله ملكا جليلا، ذا أخلاق حســنة وســيرة طيبة وكرم وافر... عمل على استقرار الدولة العثمانيــة بفتوحاته الجديدة وتنظيماتــه العديدة، وحرص كل الحرص على تنفيذ وصية والده عثمان مؤســس الدولة العثمانية. ودُفِن في مدينة "بورصــة" عاصمة الدولة العثمانية، وتولَّى بعده ابنه السلطان مراد الأول. ■

(*) جامعة عين شمس / مصر.



دع أمتك إلى الأمام تخطو، على الأعقاب لا تدعها تنكص،
علّم شبابها كيف يسمو، اسقهم روحا، وأرهفهم شعورا،
وهذبهم حِسا... فتلك هي الطريق.

***

د. سليم أيدين*

رحلة إلى أغوار النفس الإنسانية

إن إنسان كل عصر يفسر الكون والحياة في ضوء ما هو متراكم من المعلومات في عصره وما ورثه ممن سبقوه. وبالنسبة لمفهوم العلم في القرن الواحد والعشرين فإن النظرة العلمية ستكون على أساس العلاقات المتداخلة والمتقابلة بين الإنسان والكون بحيث يشكلان شبكة من المنظومات.

إن المعلومات التي من شأنها أن تمكننا من إقامة رؤية متكاملة متناغمة بين الإنسان والكون والحياة في ضوء رسالة القرآن والوحي السماوي وتعيننا على استحضار الصورة الكلية التي تجمع بين هذه الحقائق الثلاث... تلك المعلومات موجودة ومتوفرة بصورة متفرقة. والأمر الوحيد الذي نحتاج إليه هو أن نتعلم كيفية التفكير الشمولي المنهجي ونركز عزمنا وإرادتنا وجهودنا باتجاه تحقيق تركيب متكامل من هذا النوع. وإذا حاولنا أن نفهم ثلاثية الإنسان والكون والحياة من المنظور القرآني فسنرى أنه يحتوي على بذور هذه الحقائق الثلاث بشكل شمولي، وسنلاحظ أن هذه الثلاثية قد رسمت مفصلة بقلم القدرة الإلهية على صفحات كتاب الكون.

أنماط الماهية الإنسانية

وعندما نحلل الماهية الإنسانية من منظور التفكير المنهجي نلاحظ أن كل إنسان ينطوي في ماهيته -على الأقل- على أربعة أنماط من الإنسان:

الإنسان المادي (البيولوجي)، والإنسان العاطفي (النفسي)، والإنسان الفكري (المثقف)، والإنسان الروحي. فهذه الأنماط الأربعة من الأنا تشكل شخصية الإنسان.

وتبرز هذه الأشكال من الأنا وتتطور في كيان الإنسان تدريجيا وعلى مراحل؛ فقبل كل شيء يتمتع الإنسان بروح ذي حياة وشعور خلقه الباري لينمو به الجسم ويصير إنسانا. وعندما يُنفخ الروح في الجسم الحيواني يتشكل البدن في الرحم، ويتجهز بالشكل الذي يناسب الروح. وتنمو الماهية الإنسانية لكل طفل والطبقات التحتانية من "أنا"ه بأنماطه الثلاثة مطابقة وملائمة لاستعداداته الروحية وموروثاته الجينية.

إن الجنين ينمو ويتطور من طبقاتِ "أكتودرم" و"أندودرم" و"مذودرم" من مراحل الخلية ليأخذ طريقه إلى أن يصبح طفلا إنسانيا بالاعتماد على تلك المقومات التي سبق وأن ذكرناها آنفا ولاسيما الروح منها.

مراحل النمو الجسمي والعاطفي للإنسان

فالطفل الذي ينمو من الناحية البيولوجية والجسمانية، من السن الواحدة إلى السابعة يدرك ويتعرف على ما حوله من خلال حواسه الخمس. وفيما بين السن ٧-١١ يتنبه إلى أحاسيسه العاطفية، ويبدأ بتفسير ما حوله من إطار عاطفي، ويدرك العلاقات المبنية على هذا الأساس، وبذلك تترسخ الأسس النفسية الإنسانية فيه.

وفي كلتا المرحلين السابقتين يترسخ لدى الطفل ويغلب عليه الشعور بالانتماء والإحساس بالحاجة إلى الآخرين. وفيما بين السن ١١-١٦ يغلب على الطفل (المراهق) الشعور بالاستقلالية والرغبةُ في الإفصاح عن هذا الشعور، ويبدأ بالبحث عن هوية للتعبير بها عن نفسه. وفترة ما بين ١٦-٢٣ هي المرحلة التي ينمو ويتطور فيها التفكير العقلي والمنطقي المجرد، وتبرز فيها القوى والاستعدادات الذهنية لتضرب بثقلها وتعبر عن وجودها. وبهذا يتكامل النمو الجسمي والعاطفي والذهني للإنسان، وتتأسس شخصيته على هذه الدعائم الثلاث.

وتختلف مدة وفترات الانتقال فيما بين هذه المراحل حسب الظروف التعليمية والثقافية والميول التي يتمتع بها الإنسان منذ الولادة. ويمكن رصد انعكاسات المراحل الأولى من نمو شخصية الإنسان من الناحية البيولوجية والنفسية والذهنية، حيث تتطور هذه المراحل وتترسخ بشكل متناغم فيما بينها.

النقوش الثلاثية في عالمي الكون-الإنسان

على الرغم من أن كل إنسان عالَم بذاته فهو يمثل مجموعات من الإنسان كأنها نقوش متناسبة فيما بينها؛ فبينما تُشكِّل الروحُ الإنسانية ماهيةَ الإنسان أو "أنا"ه (ذاته) تنشئ أنظمةَ وظائفِ التفكير والإحساس والعمل (الإنجاز)، حيث إن هذه الوظائفَ الثلاث من الوظائف الأساسية التي تشكل ذات الإنسان.

وهناك ثلاثة مراكز أساسية تبرز وظائف الروح وتظهرها، نسميها العقل، والنفس، والقلب؛ فيرتبط العقل بمركز الذهن، والقلبُ بالحس (العاطفة)، والنفسُ بالجسم. وينقسم ذكاء الإنسان أيضا إلى ثلاثة أقسام: العقلي (الذكاء الرياضي المجرد)، والقلبي (العاطفي)، والبدني (النفسي).

ويتحدث الأستاذ بديع الزمان في كتابه "إشارات الإعجاز" لدى تفسيره لمصطلح "الصراط المستقيم" الوارد في سورة الفاتحة فيقول: إن الله ﷻ لما أسكن الروحَ في البدن المتحوِّل، المحتاج، المعروض للمهالك، أودعَ لإدامتها فيه قوىً ثلاثاً.

إحداها، القوةُ الشهوية الجاذبة للمنافع. وثانيتها، القوةُ الغضبية الدافعة للمضرّات. وثالثتها، القوةُ العقلية المميِّزة بين النفع والضر. وهناك مراتبُ ثلاث: التفريط، والإفراط، والوسط وهي العدل الذي هو الصراط المستقيم.

وتشكل القوة الشهوية والغضبية والعقلية في علم النفس الحديث الألوانَ الأساسية الثلاثة للذات الإنسانية (الأنا)؛ فالقوة العقلية مظهر للاستعداد الذهني، والقوة الشهوية مظهر للاستعداد العاطفي والقوة الغضبية مظهر للاستعداد الجسمي والقوة الجسدية.

ويذكر الأستاذ علي أونال في كتابه "المصطلحات الأساسية في القرآن" أن الروح حينما يُشكِّل الإنسانَ ينقسم إلى ثلاثة استعدادات ثانوية: المركز الحسي (العاطفي) الذي هو منبع اللذة والألم والحب والبغض، والمركز الذهني الذي هو منبع التفكير والإدراك والتصور، والمركز الجسمي الذي هو منبع للتوجه لتنفيذ الأعمال وتحقيقها بالفعل.

وحدات الروح والنفس والدماغ

وكما ذكرنا، إن الروح يتشكل من وحدات أساسية هي: النفس والعقل والقلب. فالنفس بمثابة محطة (سنترال) توفر للإنسان البيولوجي (الجسم) مواصلةَ بقائه ووجوده، وتوجَد في النفس أحاسيس تتكون من استعدادات ذهنية وعاطفية وجسمية.

وتنقسم نفس الإنسان إلى ثلاثة أنواع: النفس النباتية (وهي قوى الهضم والتنفس والإفراغ والدوران)، والنفس الحيوانية (وهي النظام العصبي ونظام الحركة بالإضافة إلى النفس النباتية)، والنفس الإنسانية (بالإضافة إلى النفس الحيوانية). وما يستعمله الصوفية من مصطلحات "العقل السليم" (الحكمة)، و"القلب السليم" (العفة)، و"الذوق السليم" (الشجاعة) هي تعبير عن توافر هذه الأنواع الثلاثة من الاستعدادت.

ويوجد في دماغ الإنسان أيضا ثلاث وحدات ثانوية. وهذه الوحدات مناطق مادية لابد من وجودها وتوافرها في جسم الإنسان لتعكس الروح إلى عالم الأسباب على مستوى الشرط العادي. ولتقريب هذه الظاهرة إلى الأفهام إلى حد ما حاول العلماء إيضاحها بنظرية المخ الثلاثي المناطق على ما وصل إليه علم الطب الحديث. وهذه المناطق هي:

أ-الدماغ الأمامي: وهي المنطقة التي تنكشف فيها الملكات العقلية والاستعدادات الذهنية.

ب-الجهاز اللمبي (الدماغ المتوسط): وهو المنطقة التي تتم فيها معالجة العواطف وتظهر فيها الاستعدادات العاطفية.

جـ-الدماغ الخلفي: وهي المنطقة التي تتشكل وتظهر فيها الاستعدادات الجسمية.

وتلاحَظ الفروق بين هذه الأقسام الثلاثة من حيث الكيمياء العصبية أيضا. ويلاحظ أن الإنسان في طريق الحياة يمر بمراحل لها طابعها الخاص كالمرحلة الجنينية فالصبا فالمراهقة... إلخ. وهناك ثلاث مراحل انتقالية وأساسية وخطيرة لها تأثير على نمو الإنسان وعلى صحته بشكل عام. فالأولى هي مرحلة الانتقال من الطفولة إلى المراهقة (الشعور بالذات)، والثانية: هي مرحلة الانتقال من المراهقة إلى النضج (وطابع هذه المرحلة أن يكون الشخص صاحب أسرة ومهنة)، والثالثة: مرحلة الانتقال من النضج إلى مرحلة الكهولة حيث تُولّي حيويةُ الشباب والصحة شيئا فشيئا (أزمة العمر الخمسين). وتنطوي كل هذه المراحل على إيجابيات وسلبيات تخصها، ولذلك من الأهمية بمكان أن يتعرف الإنسان على خصائصها، ويكون على استعداد لها من الناحية النفسية والذهنية والروحية.

ويمكن رصد هذه الاستعدادت الثلاث في نمو الإنسان بشكل صحي؛ فنموه من الناحية البيولوجية (الاستعداد البدني)، وتأسيسه علاقات بمن حوله (الاستعداد العاطفي)، وتعلمه (الاستعداد الذهني) من المجالات الأساسية في تربيته. ولابد من تنمية هذه الاستعدادات الثلاثة فيه بشكل متوازن حتى يواصل حياته على محور الرضا الإلهي.

ويختلف الناس فيما بينهم حسب ما يتمتعون به من المحفزات الداخلية (التي هي البحث عن القوة، والبحث عن تقدير الآخرين، والبحث عن الإلهام) والتي تأخذ شكلها على حسب النقوش الثلاثة التي تنبع من أعماق كيانهم. فالإنسان مفطور بحيث يستطيع أن يحقق هذه المحفزات في عالمه الجسماني وفي علاقاته مع الآخرين وفي عالمه الفكري.

> وإذا حاولنا أن نفهم ثلاثية الإنسان والكون والحياة من المنظور القرآني فسنرى أنه يحتوي على بذور هذه الحقائق الثلاث بشكل شمولي، وسنلاحظ أن هذه الثلاثية قد رسمت مفصلة بقلم القدرة الإلهية على صفحات كتاب الكون.

ثلاثية المدرسة والتكية والثكنة

ويعتمد نمو ورثة الأرض ويرتكز أساسا على هذه الدعائم الثلاث التي هي ثلاثية المدرسة والتكية والثكنة؛ فبينما تنمو وتترعرع الاستعدادات الذهنية في المدرسة، تتطور الاستعدادات العاطفية في التكية، وتتربّى القابليات الجسمية وتنضبط في الثكنة. فهذه المؤسسات الاجتماعية الثلاث تنمو فيها الاستعدادت الإنسانية بشكل متوازن ونافع. وإذا اجتمعت هذه المؤسسات التي هي رأسمال المجتمع، ونُسّق فيما بينها، فسيتحقق عند ذلك العديدُ من المشروعات الناجحة.

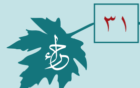
ولابد للتنمية الصحية من توفر ثلاثة أنواع من الرأسمال:

أ-الرأسمال الفكري (المعرفة) النابع من الاستعدادات والطاقات الذهنية.

ب-الرأسمال الاجتماعي (العلاقات البشرية والإنسانية) النابع من الاستعدادات العاطفية.

جـ-الرأسمال المادي (العملة والعقارات والبنى التحتية والمعدات) النابع من الاستعدادات والموارد المادية.

ويوجد في المجتمع أشخاص تتناسب وتتطابق استعدادتهم



مع نمــط من هذه الأنماط من الرأسمال؛ فالذيــن يُثْرون الرأسمال الفكري هم الذين يغلب على فطرتهم الجانب الذهني، في حين أن الذين يزيدون في الرأسمال الاجتماعي هم العاطفيون (بالمعنى الذي ذكرنا آنفا)، والذين يُمدون الرأسمال المادي هم الذين ترجحت استعداداتهم المادية.

ومن هــذا المنظور فإنــه من الأهمية بمكان –لدى تقســيم الوظائف– أن تؤخــذ بعين الاعتبار المواهبُ والقابليات الفطرية لمن تُوسَّد إليه الأمور، فإن الذين يُستخدَمون في حقول لا تناسب مواهبهم قد ينجحون على مستوى المتدربين أو المحترفين، ولكن يستحيل ترقيهم إلى مســتوى الصناع المهرة (الفنانين)، وبتعبير آخر. إن هؤلاء قد يحرزون النجاح في الجملة، ولكنهم لن يحققوا النجاح الباهــر. وبالمقابل فالذين يوظفون في أعمال تناســب مواهبهم سيجدون الفرصة ليكونوا صناعا مهرة بارعين. فإذا كنا نطمح إلى تنشئة أفراد ذوي كفاءة عالية، فعلينا أن نستخدمهم في أعمال تناسب استعداداتهم ومواهبهم. وقول الرسول ﷺ: "الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا" ذو مغزى عميق، ويدل على حقيقة عظيمة.

مراتب العلم

والعلم على ثلاث مراتب: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين. وكذلك الإنسان له ثلاث أعين: عين البدن (البصر) وعين العقل (الفكر) وعين القلب (البصيرة).

هذا، وقد أثبت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن الحياة في بُعد إنساني إنما تكون ممكنة إذا كانت مرتكزة ومبنية على نقوش ثلاثية قوامها الصدق والخير والجمال بشكل متوازن. وهناك في المقابل ثلاثية الخطأ والشر والقبح. وفي عالمنا الذي نعيشه تنقسم الحقائق أيضا في البداية إلى ثلاثة أقســام: الذهنيــة، والعاطفية، والمادية.

ولكل ما يجري من الأحداث ثلاثة أبعاد: معرفي، وعاطفي، ومادي. والناس حينما يتلقون الأحداث ويوجهون إليها انتباههم، يركزون عليها ويوجهون إليها طاقاتهم من أحد هذه الأبعاد الثلاثة في الأغلب من حيث لايشــعرون. فالناس في تلقيهم للأحداث وتوجيه طاقاتهم وانتباههم نحوهــا على ثلاثة أنواع: فمنهم من ينظر إليهــا من منظور ذهني (فكري)، ومنهم من ينظر إليها من زاوية عاطفية، ومنهم من ينظر إليها من وجهة نظر مادية.

فعلى سبيل المثال إذا طلبنا تقييما ممن حضروا حفلا، فسنرى أن قسما منهم سيبدأ –من حيث لا يشعر– بإبداء رأيه حول الحفل من حيث لذة الأطعمة المقدَّمة وروعة التنظيم، وقسم آخر منهم سيدلون بدلوهم حول سعادة الحضور وبهجة محياهم وانتهازهم فرصــة الالتقاء بالأحباب والأصدقــاء، في حين أن بعضا منهم سيتحدث بطريق مباشــر عما تطرق له الحاضرون من المواضيع وما إذا كانت هذه المواضيع جديدة أو عميقة، ويقيّمها من هذه الناحيــة... وبالتالي فالذي ينظم حفلا مــن هذا النوع إن كان إنســانا تغلب عليه النواحي الذهنية سيهتم –من حيث لايشعر– بالدرجة الأولى بالمواضيع التي ستطرح في الاجتماع على بساط البحــث وبمدى عمقها الفكري... بينمــا إن كان المنظم تغلب عليه النوازع العاطفية، فسيدعو للحفل الأشخاص الذين يعرف بعضهم البعض ويتحابّون ويســهل فيمــا بينهم تبادل العواطف وإحياء الذكريات الســابقة، ويهيئ نظــام الجلوس على الموائد على أســاس القرابة أو المحبة ويأخذها بعين الاعتبار... والذي تغلب عليه الجوانب المادية ســيهتم بتنوع ما يقدَّم من المأكولات والمشروبات وعلى نوعيتها وعلى نظام البرنامج.

والأســتاذ بديع الزمان رحمه الله لدى تناوله موضوع البحث عــن الحقيقة وتنوع الطرق الموصلة إليهــا واختلاف الناس فيما بينهــم يمثل وضع المدعوين ويضرب المثل لهــم بوضع "الزهرة" والقطرة" و"الرشحة" تجاه الشمس والقمر، ويؤسس نظريته على هذه المنظومة الثلاثية. ويؤكد رحمه الله أن "الناس يســلكون نحو الحق والحقيقة إما عن طريق [تزكية] النفس أو العقل أو القلب، وأن الإنســان على الرغم من أن له اســتعداداً لبلوغ الكمالات كلِّها ونيلِ أنوار الأسماء الحســنى جميعِها فإنه يتحرى الحقيقةَ من خلال ألــوفِ الحُجب والبرازخ، إذ اقتــدارُه جزئي، واختيارُه جزئي، واستعداداته مختلفة ورغباته متفاوتة".

غايــة ما في الباب أن كل ما ذكرنا دليل باهر على أن الناس خلقوا على سجايا وطبائع مختلفة، وكل شخص منهم يشق طريقه في البحث عن الحق والحقيقة بالتأسيس على ما يتمتع به من نقوش أناه وذاتيته، وهذا مصداق قول الله ﷻ في كلامه الأزلي: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾(الإسراء:٨٤). ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أجير جمال الدين أشيوق.

صبرا على الأشواك

يوسف النتشة*

إن بعد العسر يسرا ... إن بعد الليل فجرا

ليس يغني المرءَ نوْحٌ ... لا ولا الآهاتُ حرّى

إن لله قضاءً ... فاحمدنْ خيرا وشرا

إنْ تجرّعك الليالي ... بالجراح السود مرّا

أو تنل منك العوادي ... تارةً في إثر أخرى

لا تقل قد عيل صبري ... إنْ قضى الرحمن أمرا

إنّ للأيام مكرا ... يترك الألباب حيرى

قد بدا كالسحب غشّى ... مدْلهما مكفهرا

عاصفا من كل صوب ... ينثر الآلام نثرا

يلهب الأحشاء نارا ... ويحيلُ الدمع جمرا

فإذا دنياك ضاقت ... وطواك البؤس دهرا

وانجلى ثوب الأماني ... كخريف قد تعرى

وغدا العيش حماما ... يزهقنّ الروح قهرا

فإلى القرآن ذكرا ... وإلى الرحمن فرا

عهدها الأيام تهوي ... بالورى مَدا وجزرا

وعظيم النفس يمضي ... رابطا للجأش حُرا

شامخا كالطود عزما ... راسخا قلبا وفكرا

ليس يثنيه خضمٌّ ... لا ولا الأمواج تترى

دربنا يا بن اللآلي ... لم يكن زهرا وعطرا

دربنا نحو المعالي ... يا أخي ما زال وعرا

فإلى الميدان هيا ... وعلى الأشواك صبرا

(*) شاعر فلسطيني.

ضرورة الفن

في البناء الحضاري والتواصل الثقافي

أ.د. مصطفى عبده*

الجمال أصل في البناء الكوني، ولكننا لا نرى هذا الجمال ولا نحس به لأنه فينا ومن حولنا. فلا يحس البشر إلا بالمعاكس لهم في الطريق، والمعاكس هو القبيح فلا يحس البشر إلا بذلك القبيح. وما القبح إلا درجة من درجات الجمال متدنية لإظهار درجات الجمال، والفن احتجاج دائم نحو التنوير ضد إمارات القبح والهبوط المادي والمعنوي والانحرافات، ضد الاستخدامات البشعة للفن والجمال. فكان لابد من استيقاظ النفوس لترى الجمال وتعمل بمقتضى هذا الجمال والترقي المتصاعد نحو الكمال من خلال الجمال والجلال.

أبدع بديع السموات والأرض الكون من خلال ﴿كُنْ﴾، فكانت الكائنات ما بين الكاف النون، وكونها تكون هو استجابة (طاعة ووجود وتكوين)، وهذه هي أول تسبيحة، وهي مسبحة بوجودها، وكل شيء يسبح لله ﷻ. وما من شيء إلا وهو مسبح، وهي تسبيحات تسخيرية لا لها ولا عليها، وهي مسيرة في تسبيحاتها تسير على قانون وناموس كوني لنظام متسق بديع مبرمج. يقول تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(الإسراء:٤٤)، ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾(النور:٤١).

أما الإنسان فقد خلقه الله بيديه وسوّاه وعدله، ونفخ فيه من روحه، وحمّله الأمانة وأودعه عقلا إبداعيا ونفسا متطلعة لها مراتب سباعية، وروحا سامية متعالية للاتصال بالملأ الأعلى. وجعله مستخلفا في الأرض ليعمرها بالإبداع والعمل الصالح لوراثه الجنة. وأسجد له الملائكة، وعلّمه الأسماء كلها، وأعطاه صفات من صفات الربوبية، وجعله كائنا جماليا مبدعا، وكائنا حرا مريدا، وكائنا خاشعا نقيا ومبدعا تقيا، وكائنا عقلانيا، وكائنا أخلاقيا، وكائنا عابدا.. ووضع له منهجا يسير عليه ليتسق مع الكون المسيّر المتسق من خلال اتباع في العبادات، وإبداع في المعاملات من خلال إبداعاته الرائعة.

كان الفن وكان معه الإنسان يعلو ويهبط معه وبه. وقد تلازم الفن مع الإنسان وتلازم الدين مع الإنسان منذ أن كان. ولتلازمهما مع الإنسان كان لابد لهما أن يتلازما وقد تلازما، حيث أخذ الفن مواضيعه من الدين، وأخذ الدين قوته بالفن على حسب قوة الاعتقاد وضعفه في النفس البشرية.

وعند انحراف العقائد كانت الفنون هي الأدوات التي استخدمت في تأكيد هذه الانحرافات، فكان استخداما "بشعا" للفن لمحاولة الكهنة السيطرة على الشعوب وإخضاعها. فكانت الفنون من تشكيل وعمارة وموسيقى ودراما ورقص وألوان وأشكال هي الوسائلَ المستخدمة في الانحرافات العقائدية، وما تبعها من انحرافات سلوكية حتى تسهل السيطرة الكهنوتية على الشعوب المغلوبة على أمرها. وهكذا كان الفن قبل الإسلام إحدى الأدوات القبيحة والبشعة للسيطرة على الشعوب وإلهائها وكذلك في العصور الوسطى. ويستخدم الآن في العصور الحديثة لإلهاء الشعوب عن مهامها الإنسانية باستخدامه كوسيلة انحرافية للفسوق والفجور والخلاعة

ولكن الفن على عكس ذلك، فالفن وسيلة لإظهار الجمال والمحبة والترقي والسمو، وتأكيد إنسانية الإنسان لتعمير الأرض، وإنشاء إنسان أخلاقي متجمل يعيش في المستويات العليا الرفيعة. الفن أداة لمقاومة التدني والهبوط والسقوط إلى القاع، واستيقاظ النفوس لترى الجمال وتعمل بمقتضاه من خلال الحق والخير والجمال والاستعلاء والاعتدال، والعمل في "الوسط" المتعالي من بين طرفي الإفراط والتفريط.

الفن أصدق أنباء التاريخ؛ فكم من حقائق تاريخية انزوت في ظلمات التاريخ، وكان الفن هو الكاشف عن تلك الحقائق الخفية، لأن الفن هو تعبير الشعوب عن نفسها بنفسها لنفسها.

والفنان إنسان مختار اصطفاه الله ليقوم بمهام إبداعية "تعبدية وحياتية" للإبداع الفني والفكري والعلمي والعملي، ليعمر الأرض بالإبداع والعمل الصالح، ليتناسق مع الكون المتسق ومع نفسه ومع

الكائنات، ليرى الجمال ويعمل بمقتضى الجمال بوعي أخلاقي متجمل.

يسير الإنسان عبر معابر إبداعية ثلاث

أ- باعتقاد خاشع يصل حد التقوى الجلالية (رهبة جلالية) من خلال عقل يستقرئ الحق، أي بحق يُعقل من خلال عقل ظاهري درّاك، وذلك لأن الإنسان كائنٌ خاشع يعتقد، ذو عقل منطقي بارع، منطقي في تفكيره بمسلك خاشع، لحق معبود في "اتزان الحق".

ب- واختيار حر ملتزم بحدود الحرية حرية إنسانية، يصل حد الاستقامة الخلقية (رهبة أخلاقية) من خلال إرادة تستقطب الخير، أي بخير يُراد من خلال عقل باطن واع يحوي الوعي كله. وذلك لأن الإنسان كائن أخلاقي ذو إرادة خيرة، يمتلك عقلا واعيا بسلوك خيّر لعبادة خيّرة بـ "انسجام الخير".

جـ- وإبداع رائع يصل حد الروعة الجمالية (رهبة جمالية) من خلال حس يستقطر ويستشعر بالجمال، أي بجمال يحس به من خلال عقل إبداعي رائع. وذلك لأن الإنسان كائن جمالي ذو إبداعات رائعة بعلاقات جمالية للإيقاعات الجمالية بـ "إيقاع جمالي".

وهكذا يكون الإنسان المبدع هو الكائن "البارع، الواعي، الرائع" من خلال عقل إبداعي وأخلاق إبداعية وحرية مسؤولة. فالعمل الفني لا يتأتى إلا من خلال هذه الدروب السامية، ليحقق الإنسان إنسانيته واستخلافه في الأرض. فيكون الإبداع الجمالي هو عملا فنيا يقوم به فنان "بارع-رائع-واع" سام متعال يعمل لاستيقاظ النفوس لترى الجمال، ويعمل في نفس الوقت لإيقاظ الإحساس بالقيم الإنسانية العليا في الحق والخير والجمال. ويستقيم الإنسان (الفنان والمتلقي) فتستقيم الحياة باستقامته، فيكون إنسانا مبدعا تقيا وخاشعا نقيا وحرا وفيا. وهو كائن أيضا بعد انتقاله من الحياة الدنيوية، في انتقاله من الحياة الأزلية إلى الحياة الأبدية عبر مراحل سباعية متتالية ومتوالية ومتعالية:

- وجد الإنسان مع الإبداع الإلهي من خلال قول الحق ﴿كُنْ﴾. فكانت الكائنات وكان الإنسان مع الكائنات في عالم الذرات. وعندما قال المبدع ﷻ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، قَالُوا: بَلَى. وهو الوجود الأول الذري.
- ثم كان الوجود الثاني بالخلق الإلهي، حيث خُلق من الأرض وليس في الأرض، لقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾(طه:٥٥)، وليس "فيها خلقناكم"، خلقه الله ﷻ بيديه ونفخ فيه من روحه وعلّمه فكان الخلق بعد الإبداع.
- أما الوجود الثالث فكان في الجنة (آدم وحواء عليهما السلام، وإبليس)، وكان المصير النزول إلى الأرض للوجود الرابع على الأرض.
- والوجود الرابع للإنسان في الحياة الدنيوية لحياة مؤقتة من الميلاد وحتى الممات لحياة اختيارية اختبارية. وهي أهم مراحل الحياة الإنسانية، وفيها يحدد الإنسان مصيره الأبدي، من خلال اتباعه للمنهج الإلهي حتى يتسق مع الكون المتسق المسير، ليسير الإنسان مع الزمان وتغيراته والمكان وتجدده. والإنسان في مكان داخل زمان في الحياة الوسطية للمرحلة الرابعة المتألقة من الإيقاع السباعي للوجود الإنساني.
- أما الوجود الخامس يكون بعد الموت والانتقال من الحياة الدنيوية المؤقتة إلى الحياة البرزخية الموقوتة، حيث يبقى فيها بعد الموت وحتى البعث والنشور ليوم الحساب.
- والوجود السادس هو البعث والنشور ويوم توزن الأعمال، حيث يبقى الإنسان في ذلك اليوم بمقدار أفعاله وأعماله التي عملها في الحياة الدنيوية ليذهب إلى حياته الأبدية، إما جنة وإما نار خالدا مخلدا فيهما.
- أما الوجود السابع والأخير فهو الوجود الأبدي؛ إما في جنة خالدا مخلدا فيها لجنان لها سبعة درجات، أو وجودا بالتلاشي المستمر في النار، بالحرق المستمر في نيران لها سبعة دركات حيث لا يموت فيها ولا يحيى. هذه هي الحياة السباعية لذلك الإنسان، وهي الحياة الرابعة من الحياة السباعية، وهي أهم المراحل الحياتية، وفيها تتحدد حياته الأخروية بما فعله في دنياه من خير أو شر.

الدائرة الجمالية

الكون يدور على ساعة منضبطة على أجزاء من الثانية بل الثالثة وهي الومضات الذرية. فكل الكائنات من الذرة إلى المجرة، لها دوراتها وحركاتها المحسوبة. وكل الأنفس لها أنفاسها المعدودة لأماكن معدودة. فالكون كله منضبط على نبضات محسوبة ومعدودة داخل الدائرة الكربونية على مسافات الومضات الكونية من خلال سرعاتها الضوئية. وهي سابحة ومسبحة بإيقاعاتها الخاصة، مستمدة أنشودتها من الأنشودة الكونية العلوية الخالدة. كل الكائنات مسيرة ومسخرة في مسيرتها من خلال الناموس الكوني، ولا تستطيع أن تخرج عن مسيرتها. للكون حركتان: حركة كونية مسيرة، وحركة ذاتية داخل التسيير العام. وللإنسان بعض من هذا التسيير الاختياري، لأنه الكائن الوحيد الذي أُعطي الاختيار. ولكنه محكوم داخل تسيير محكم، بحركات متوافقة معها ومتسقة بها ومنضبطة لها.

للأجرام السماوية مجراتها وأفلاكها المسيرة، وللذرات دوراتها المحسوبة، فإن اختلت موازينها انفجرت. فما بالنا ونحن بين الذرة والمجرة!.. حتى إن عود الثقاب الذي يشتعل له حساباته الكربونية والكونية، فكل نبات ينبت أو يضمحل، له حساباته العددية في اتساق مع كل نفس تتنفس في تبادل حسابي بين كل

نتح وتنفس. كل هذه العمليات الحسابية لها موازينها الذرية، حتى الذرة لها جزيئات أصغر منها. وهي عبارة عن أكوان مصغرة، يجري في الذرة ما يجري في المجرة اتساق مع الكون الفسيح المتسع الذي يتسارع في اتساعاته.

للإيقاعات الكونية ثلاث إيقاعات متناسقة

أ-الإيقاع الزماني وعطاءاته المتغيرة المتتالية (سيال ديمومي).
ب-الإيقاع المكاني وعبقرياته المتجددة المتوالية (تفجر متنام).
جـ-الإيقاع الإنساني وإبداعاته المتبدلة المتعالية (إبداع متناغم).

والإنسان في مكان داخل زمان "أنسزمكان"، فهو يتحرك بالتتالي والتوالي والتعالي، لتتوافق إبداعاته مع عطاء الزمان المتغير وعبقرية المكان المتجدد، ليتسق مع نفسه ومع الكائنات ومع الكون المتسق. فلابد من اتساق لهذه الإيقاعات الثلاثية مع القراءات الثلاث: قراءة الوحي، وقراءة الكون، وقراءة النفس من خلال إيقاعات سباعية.

القراءات الثلاث

١-قراءة "الوحي"، (كتاب الله المقروء: القرآن) ووحداته القرائية والبنائية (الحرف). وقد تنزل القرآن على سبعة أحرف. وللقرآن عطائاته المتجددة من خلال معارف الوحي. وهو عالم الروح وعالم المعرفة، وقد تنزلت آية بالقراءة في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾(العلق:١-٣).

٢-قراءة "الكون"، (كتاب الله المنظور: الوجود) ووحداته القرائية والبنائية في الذرة. وللذرة نواة تدور حولها إلكترونات لها دورات سباعية، أي عالم المادة والوجود يدرك من خلال مدارك العقل وتطالعاته، يقول تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(فصلت:٥٣).

٣-قراءة "النفس"، (كتاب الله المحفوظ) من خلال وحداته البنائية، أي الخلية (D.N.A). وتدور حول نواتها سبعة بحور سيتوبلازمية. وهو عالم الفكر والمعرفة من خلال مراتب النفس السباعية، يقول تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾(الإسراء:٣١). ومن خلال هذه القراءات الثلاثية، يتسق الإنسان مع الإيقاعات الكونية الثلاثة (الزمان، المكان، الإنسان) ليتسق مع المعابر الثلاثة الإبداعية في (الاعتقاد، الاختيار، الإبداع)، لاعتقاد خاشع واختيار حر ملتزم وإبداع رائع.

الثلاثيات والقيم الثلاثة (الحق والخير والجمال)

١-قراءة "الوحي" (كتاب الله المقروء)، من خلال الإيقاع القرآني المتسق مع الإيقاعات الزمانية وعطاءاتها المتغيرة المتتالية، بعقل يستقرئ "الحق" لاعتقاد خاشع من خلال تقوى جلالية.

٢-قراءة "الكون" (كتاب الله المنظور)، من خلال إيقاع الوجود المتناسق مع الإيقاعات المكانية وعبقرياتها المتجددة المتوالية، بإرادة تستقطب "الخير" لحرية ملتزمة من خلال استقامة خلقية.

٣-قراءة "النفس" (كتاب الله المحفوظ)، من خلال الإيقاعات النفسية المتناغمة مع الإيقاع الإنساني وإبداعاته المتبدلة المتعالية، بحس يستقطر "الجمال" لإبداع رائع من خلال روعة إبداعية.

وهكذا نصل إلى أن الكون متسق وجميل متناغم، وقد خلق الله ﷻ الإنسان كائنا جماليا ليبدع ويجمل العالم، ويتصاعد ويسمو ويتعالى لبناء حضارة جمالية متناغمة. وهي مهمة الإنسان في الأرض ليعمر الأرض بالإبداع الرائع.

إذن، مهمة الفن خطيرة في تربية الإنسان القيمي، التربية الجمالية السامية والصاعدة للمستويات العليا الرفيعة، بعيدا عن الرزايا والدنايا. والضابط الجمالي هو الضابط بين الحتمية الكونية والحرية الإنسانية. فالكون يسير على نظام منضبط بنظام حتمي، أما الإنسان فقانونه الحرية وهو مجبر على الحرية، ولكنه داخل الجبر الكوني فهو في مكان داخل زمان. والقانون الذي يربط بين الجبرية والحرية هو القانون الجمالي. أما القيود الدينية أو بالأحرى الحدود الدينية، فهي أوسع من الدائرة القانونية، لأنها تقيد وتحد الإنسان في الظاهر والباطن للذين يتدينون بذلك الدين. ولهذا فإن الدائرة الأخلاقية أوسع من الدائرة الدينية، لأنها تشمل الإنسانية كلها. فهو قانون فطري في الفطرة الإنسانية.

أما الدائرة الجمالية فهي أوسع هذه الدوائر، لأنها تشمل الكائنات كلها. وقد خلقت هذه الكائنات على نظام جمالي. فالكون كله مبني على الجمال، والجمال أصل في البناء الكوني. إذن، الضابط الجمالي هو القانون الداخلي والباطني الذي يربط بين الكائنات وبين الحتمية والكونية والحرية الإنسانية. وتلي هذه الدوائر الأربعة ثلاثة دوائر لتكون سبعة دوائر:

- القانون الطبيعي، وهو شامل للكائنات في جمالياتها واختلالاتها (الناموس الكوني).
- القانون الإلهي، هو الميزان الاعتدالي وهو عدل لا ظلم فيه.
- الرحمة الإلهية، حيث وسعت رحمته كل شيء إذ تسبق رحمته عدله.

وهكذا فإن للجمال دوره الفعال في الضبط الكوني المتسق، ليتسق الإنسان جماليا فيتسق مع نفسه ومع الكائنات، ليحقق حق الاستخلاف في الأرض، وليعمر الأرض بالإبداع الرائع ويعمل بمقتضى الجمال لتحقيق إنسانية الإنسان. ■

(*) جامعة النيلين / السودان.



الشمبانزي والإنسان
حسب علم الجينات

أورخان محمد علي*

يدعي التطوريون بأن علم الجينات يبرهن على أن القرود -ولاسيما الشمبانزي- قريبة من الإنسان من الناحية التطورية، لأن هناك -حسب ادعائهم- تشابها كبيرا بين جينات الإنسان والشمبانزي يبلغ بنسبة ٩٨,٥-٩٩٪، أي هناك تقارب تطوري بينها.

إن عامل الجهل وعامل التعصب لنظرية التطور هما وراء مثل هذه الادعاءات الصادرة لتأييد نظرية التطور التي أصبحت أيدولوجية فلسفية عند معظم علماء التطور، و لم تعد مسألة فرضية أو نظرية علمية يجب تناولها بموضوعية وحيادية، أي قابلة للإثبات أو الرفض. والدليل على ما نقول هو محاولات التزوير العديدة التي قام بها أنصار هذه النظرية لإيهام الناس بصحتها.

إن تخطيط الخلق تخطيط دقيق جدا وعلى شكل شفرات، بحيث إن أي فرق مهما كان ضئيلا يؤدي إلى تغيير كامل في صفات المخلوقات. وهذا يشبه أرقام الهواتف، فخذ مثلا الأرقام العشرة للهواتف النقالة، فإن تشابهت تسعة أرقام وكان الرقم العاشر مختلفا لم تستطع الوصول إلى الهاتف الذي تريده، ولا إلى الشخص الذي تريد التكلم معه.

ويستوي في هذا الأمر أن تكون جميع الأرقام خطأ، أو يكون الخطأ في رقم واحد فقط. كذلك الأمر في الكتابة، لأن اختلاف حرف واحد في جملة، بل اختلاف عدد أو موقع نقطة واحدة سيقلب المعنى رأسا على عقب. فانظر مثلا إلى الفرق بين كلمة "الشعير" و"السعير" وبين "الفضاء" أي السماء، و"القضاء"، وبين "العيد" و"العبد"... إنه فرق في النقط فقط، ولكن المعاني مختلفة اختلافا بعيدا. وهكذا الأمر في تخطيط الخلق، وفي الاختلاف بين الجينات الوراثية لدى المخلوقات. إن أي اختلاف مهما كان بسيطا بين بروتينات هذه الجينات أو بين شكل ارتباطها وتسلسلها وموقعها يؤدي إلى اختلاف كبير بين هذه المخلوقات.

زعم أنصار التطور

كان علماء التطور قبل عام ٢٠٠٢ يزعمون بأن الفرق بين جينات الإنســـان وجينات الشـــمبانزي يبلغ ١- ١,٥٪ فقط. وكانوا يقدمون هذا الرقم كدليل لا ينقض على أن الإنســـان متطور من قرد الشـــمبانزي. والغريب أنهم قدموا هذا الرقم على الرغم من عدم تكامل وضع خريطة الجينات في الإنســـان وفي الشمبانزي. كما لم تكمل بعد دراســـة هذه الخرائط المحتوية على عشرات الآلاف من الجينات. ومثل هذه الدراســـة تحتاج إلى ســـنوات عديـــدة، ولا يزال العلم يخطو خطواته الأولى في هذه الســـاحة.

إذن، كيـــف يمكن لأي عالم أن يقدم مثـــل هذه المقارنة في موضوع لا يزال معظمه مجهولا؟ وهل يمكن عد مثل هذه المقارنة علميـــا وموضوعيا؟ هذا ما كان في عـــام ٢٠٠٢. ولكن ما أن توسع العلماء بعض التوســـع في دراسة الجينات ودراسة خريطة الجينـــات حتى تبين لهم مدى ســـطحية ادعائهم الأول. ومع أن هذه الدراســـة لم تكتمل بعد وتحتاج إلى ســـنوات عديدة، إلا أن ما تم بعد عام ٢٠٠٢ من توســـع وتقدم في الدراســـة، أظهر أن نســـبة الاختلاف بين جينات الإنســـان وجينات الشمبانزي قـــد طفرت إلى ثلاثة أضعاف الرقم الأول، حيث بلغت نســـبة الاختلاف ٥٪. وإليكم اعترافات علماء التطور في هذا الصدد:

اعترافات صارخة

١–جاء في مقالة نشـــرت عام ٢٠٠٢ في المجلة العلمية المعروفة (Proceedings of the National Academy of Sciences) بقلـــم (R.J.Britte)، بأن نسبة الاختلاف بين جينات الإنسان وجينات الشمبانزي تبلغ ٥٪ إن أخذنا بنظر الاعتبار شكل التنضيد أيضا في جزيئات (D.N.A)، فقد جاء فيها بالحرف الواحد: "إن أخذنا الإضافات والحذف بنظر الاعتبار، فإن نسبة الاختلاف بين نماذج جزيئات (D.N.A) لدى الإنسان والشمبانزي تبلغ ٥٪". أي، قام العلماء في السابق بمقارنة تركيب بنية النيوكلوتيدات (الوحدات الرئيسية الموجودة في (D.N.A) وفي (R.N.A) وتتألف من سكر وقاعدة وكبريت) الموجودة في (D.N.A) الإنسان والشمبانزي. والكاتب هو عالم جينات أمريكي يعمل في المعهد التكنولوجي في كاليفورنيا. وهو يقول هنا بأن المقارنات الســـابقة كانت خاطئة لأنها اقتصرت آنذاك على مقارنة البنية التركيبية الموجودة في نوى جزيئات (D.N.A)، و لم تشمل مقارنة شكل تنضيد هذه الجزيئات ولا مقارنة المناطق التي تكثر أو تقل فيها هذه النيوكليدات. لأن هذه الاختلافات تؤثر بشكل كبير على خصائص الكائن الحي. وقد أجرى هـــذا العالم بحثه هذا بتدقيق ٧٣٥ ألف من جزيئات (D.N.A).

٢–نشـــرت المجلة العلميـــة (Nature) المعروفة بدفاعها عن نظرية التطور، مقالة علميـــة بقلم العالم الجيني "أندي كوهلان" تناولت الموضوع نفســـه تحت عنوان "تضاعفـــت الفروق بين جزيئات D.N.A في الإنسان والشمبانزي ثلاثة أضعاف).

٣–في البحث الذي قدم في اجتماع "خريطة جينات الإنسان" في نيســـان عام ٢٠٠٣، في مدينة (Cancum) في المكسيك، من قبـــل "مركز خريطة الجينات" الذي يرأســـه العالم "تود تايلور" في مدينـــة "يوكوهاما" في اليابان جـــاءت فيه نتيجة المقارنة بين الكروموســـوم رقم ٢١ في الإنســـان مع الكروموسوم رقم ٢٢ للشمبانزي. ونشر هذا البحث في المجلة المعروفة (Nature) وجاء فيه: "في الســـابق كان يقال إن التشابه بين جزيئات (D.N.A). في الإنســـان وفي القرد يبلغ ٩٩٪، ولكن الحقيقة أن التشابه لا يبلغ ســـوى ٩٤-٩٥٪ فقـــط"، أي إن الاختلاف بينهما ليس ١٪، بـــل ٥-٦٪. ونعتقد أنـــه كلما زادت دراســـة خريطة جينات الإنسان وباقي الحيوانات الأخرى، زادت هذه الفروق. وتكامل هذه الدراســـة تحتـــاج كما قلنا إلى ســـنوات عديدة.

٤–لتجنب الإطالة ســـنذكر هنا عناوين المقالات والمصادر التي تناولت هذا الموضوع لمن يريد المزيد من التدقيق والبحث:

أ–المقالـــة المعنونـــة: (Genomic D.N.A Insertions and Deletions Occur Frequently Between Humans and Nonhuban Primates)، نشـــرت عـــام ٢٠٠٣ في مجلـــة (Genome Research) أي، مجلـــة "بحوث خريطـــة الجينات".

بـــ–المقالة التي نشرت في ٢٠٠٤/٥/٢٧ في مجلة (Nature) صفحـــة ٣٨٢-٣٨٨ تحت عنـــوان: (D.N.A.Sequence and Comperetive Analysis of Chimppanzee Chromosome 22)

ويقـــول كاتب هذه المقالـــة وهو العالم الجيـــني (Dr.Jean Weissen) الباحث في "مركز التنضيد الوطني" في مدينة إيفري في فرنسا: "إن الكروموســـوم الثاني والعشرين لا يشكل سوى أقل مـــن ١٪ من خريطة الجينات. وهناك احتمال وجود الآلاف من الجينات التي تؤكد وجود الفروق بين الإنســـان والشمبانزي". وهذا ما قلناه نحن مرارا.

جـــ–المقالة التي نشرت عام بتاريخ ٢٠٠٥/٨/٣١ في المجلة

نفسها بقلم "ميشيل هوبكن" تحت عنوان: (Chimpanzee joins the genome club).

والمقارنات الأخرى التي قام بها علماء التطور بين جينات الإنسان وجينات الحيوانات الأخرى، أظهرت نتائج غريبة تناقض نظرية التطور في الصميم، إذ أظهرت هذه المقارنات النتائج الغريبة الآتية:

إن هناك تشابها بنسبة ٧٥٪ بين جينات الإنسان وجينات الدودة الخيطية (Nematoda)، وهي طائفة من الديدان الأسطوانية التي تتطفل على الحيوانات والنباتات وتحيا في التربة أو في المياه.

هل يعقل أن يكون هناك كل هذا التقارب التطوري بين الإنسان وهذه الدودة البسيطة والبدائية التي يضعها التطوريون في أسفل مستويات التطور؟ وأين ذهبت المقترحات العديدة لشجرة نَسَب المخلوقات التي رسمها التطوريون والتي يحتل فيها الإنسان قمتها وتحتل مثل هذه الديدان مواقع سفلية فيها. فإن كان التشابه بين الجينات دليلا على التقارب بين المخلوقات وعلى درجة هذا التقارب، فلابد أن يعيد علماء التطور النظر في كيفية التطور، والطريق الذي سلكه في ضوء هذه المقارنات. وأنى لهم أن يرسموا شجرة نسب بين المخلوقات تكون فيها هذه الدودة قريبة من الإنسان كل هذا القرب؟ لم يقم بمثل هذه المحاولة أي عالم تطوري، ولا يجرؤ أصلا على القيام بها، لأنها تكون محاولة في منتهى السخافة.

وأظهرت مقارنة أخرى أن هناك تشابها بين جينات الإنسان وجينات نوع من ذباب الفاكهة أو ذبابة الندى "دروسيفيلا" بنسبة تبلغ ٦٠٪. وفي دراسة أجرتها جامعة "كمبرج" ونشرتها مجلة (New Scientist) في ١٦/٨/١٩٨٤ تبين من مقارنة بروتينات المخلوقات البرية أن أقرب مخلوق للإنسان هو الدجاج! ثم التمساح! فتأمل!..

وهذا الأمر، أي فشل التشابهات البيولوجية في تقديم أدلة على نظرية التطور، وانقلابها إلى مشكلة ضد النظرية أزعج علماء التطور كثيرا. مثلا نرى أن العالم التطوري الدكتور "كريستيان شويب"، الباحث في البيوكيمياء في كلية الطب في جامعة كاليفورنيا الجنوبية، الذي ركز بحوثه في تدقيق بروتينات الأنسولين والرلاكسين، وكانت غايته العثور على أدلة حول القرابة التطورية بين الأحياء، ولكنه لم ينجح أبدا في هذا المسعى، فاضطر إلى الاعتراف الآتي وكله مرارة: "لقد تم البدء بإعطاء أهمية أكثر إلى التطور الجزيئي من التطور البالانطولوجي في الكشف عن القرابة التطورية. ونظرا لأني مختص بالتطور الجزيئي، فقد كان من المتوقع أن أشعر بالفخر من هذا الأمر. ولكن حدث العكس، لأنه بينما كان المتوقع رؤية قرابة تطورية متصاعدة بين الأحياء وتشابه جزيئي بين الأحياء القريبة رأينا انحرافات كثيرة في هذا الصدد. وهذا أمر أليم جدا. وأنا أعتقد أن هذه الانحرافات من الكثرة بحيث إنها تحمل رسالة معينة".

أما عالم الكيمياء الحيوية (البيوكيمياء) المشهور البرفسور "ميشيل دانتون" فيقول في كتابه المعروف "نظرية التطور: نظرية في مأزق، معلقا على النتائج التي تم الحصول عليها في ساحة البيولوجيا الجزيئية: "على المستوى الجزيئي نرى أن كل نوع من أنواع الأحياء يكون مستقلا ومختلفا عن غيره، ولا تربطه مع الآخرين أي رابطة. أي أن الجزيئات -مثلها في ذلك مثل المتحجرات- أظهرت عدم وجود الحلقات الوسطى التي كان علماء البيولوجيا التطوريون يبحثون عنها. ففي المستوى الجزيئي لا يوجد أي حي من الأحياء العضوية يعد سلفا أي جدا لأي حي عضوي آخر، ولا أكثر بدائية أو أكثر تطورا منه".

وقبل إنهاء هذه المقالة نود نقل ما قاله العالم والفيلسوف "مالكوم مكاردج" في كتابه "نهاية العالم المسيحي". فهذا العالم والفيلسوف قضى عمره حتى سن الستين ملحدا يدافع بكل حرارة عن نظرية التطور، ولكنه تأكد فيما بعد أن هذه النظرية زائفة وتوقع زوالها، حيث يقول: "لقد اقتنعت مؤخرا بأن نظرية التطور ستندرج في كتب التاريخ كأكثر نظرية مدعاة للهزء والسخرية. إن الأجيال القادمة ستحتار كيف أمكن تقبل مثل هذه النظرية بكل هذا الضعف والزيف الموجودين في بنيتها".

ترى ماذا سيقول التطوريون عندنا حول هذا التنبؤ بالنهاية الحزينة لهذه النظرية؟ ■

(*) كاتب وباحث تركي.

المصادر

(1) Andy Coghlan, Human – Chimp DNA difference trebled, New Scientist.com news service, 23 September 2002.

(2) "Chimps expose humanness", Helen Pearce, 29/4/2003 http:www.nature.com/nsu/030428-html

(3) Christian Schwabe, "On the Validity of Mol Evolution", Trends in Biochemical Science, 1986.

(4) Michael Denton; "Evolution : A Theory in Crisis", London; Burnett Boks, 1985.

(5) Malcolm Muggeridge, "The End of Christendom", Grand Rapids: Eerdmans, 1980.



د. عبد المجيد الطريق*

الركن الوظيفي للبيئة قبل خلق الإنسان

منذ متى كانت البيئة قضية؟ ومنذ متى تولد الأرق في اهتمامات الخلق تجاه بعضه، كي يصير النوع البشري مهموما اليوم بمصير ما حوله من الكائنات، يخشى انقراضها ويخاف ضياعها أو استعمالها في غير ما خلقت له، ويسعى للتعرف عليها وعلى سبل الحفاظ عليها واستدامة جوارها؟

إن القضية البيئية في عمقها الفلسفي هي قضية علم أو جهل، وهي كذلك قضية إصلاح أو إفساد وقضية توازن أو اختلال وقضية تنمية أو ضياع وقضية استدامة أو زوال، وهي في نهاية المطاف قضية بوار أو خلود. والقضية البيئية بهذا المفهوم تولدت في أحشاء النظام الكوني قبل ورود الإنسان عليه سواء في بعدها التكويني الطبيعي أو في بعدها التأطيري العلمي عبر وحي الله وتعليمه لخلقه، من ملائكة أو غيرهم أو في بعدها الغائي كمطية لعبادة الله ﷻ ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ۞ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(طه:٤٩-٥٠).

لقد كانت الأرض بيئة بالتكوين عبر التوازنات الطبيعية القائمة فيها، وكانت بيئة بحكم نظرة الملائكة لأثر الاستخلاف فيها، وكانت بيئة بحكم قابليتها للاستخلاف فيها، وكانت بيئة بحكم الغاية من خلقها مهدا لعبادة الله ﷻ فيها.

١–الأرض بيئة بالتكوين

قبل الإنسان كانت المنظومة الكونية بأرضها وسمائها، بيئة تصنع على عين الله وتمارس تفاعلاتها الوظيفية بأمر الذي أوحى في كل سماء أمرها، وتعيش فيها الأحياء من نبات وحيوان في البر والبحر بفضل الذي بارك فيها وقدر فيها أقواتها.

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ۞ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۞ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ

وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(فصلت:٩-١٢).

لقد كان الوسط الطبيعي يموج في بعضه بحيه وميته، بجماده ونباته وحيوانه، بأنواعه الصامدة والمنقرضة، بظواهره الطبيعية من زلازل وبراكين وأعاصير وفترات تجمد وموجات حر، بنيازكه وفضائه الكوني الواسع، فكان وسطا طبيعيا في قاعة انتظار.

كان بيئة بتوازناته الطبيعية، خلق بقدر ودبر بلطف، وصار مهادا معدا لاستقبال وافد الاستخلاف فكان هناك تعطش بيئي في هرم الوظيفة الأرضية خلقا وغاية.

٢–الأرض بيئة بقابلية الصلاح والفساد

الملائكة كانت تبني فهمها على فكرة استخلاف لا وحي فيها ولا علم بالأسماء فيها. فكان في نظرها استخلافا بالخلقة قد يجنح بصاحبه تلقائيا نحو الفساد وذلك لجهله بالأسماء وبآثار انغراسه في البيئة على وجه الاستخلاف لا على وجه الانغراس البيئي الطبيعي كباقي الأنواع. ذلك أن الانغراس الطبيعي تحكمه سنن تكوينية طبيعية تحدد مكان كل نوع في الهرم البيئي، بينما المستخلف تكون له قدرة التعرف على السنن وخرقها أو الحفاظ على مقتضياتها في عملية الاستغلال. ويكون هذا بتغليب حضور نوع على نوع آخر كما يحدث في الزراعة مثلا حيث تخلى مساحات شاسعة لفائدة نوع من النبات من حبوب وغيرها. وكأن مبدأ الاستخلاف هو مبدأ تمطط الحقوق البيئية للنوع المستخلف صعودا وهبوطا حسب المزاج والشهوة والرضا والغضب والحسد والغيرة والضعف والقوة وحاجته في كل هذا لأمر إضافي غير الأوامر التكوينية، وهو أمر الوحي أو أمر الله المباشر وهداه في كل حال.

ولهذا كان عيش أبينا آدم عليه السلام في الجنة مقترنا بأمر الله بعدم الأكل من الشجرة. وعند هبوطه منها كان قول الله تعالى مبينا له شروط وحكمة الاستخلاف المقصود والمطلوب. ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾(طه:١٢٣). كان اقتران الاستخلاف بتلقي الهدى من الله عز وجل والتوجيه لدرب العبادة حصنا من الانغراس البيئي المعتمد على الغريزة البيئية وحدها، والتي ستحيد عبر مبدأ قابلية تفعيل الصلاح والفساد لدى المنغرس الجديد.

٣–الأرض بيئة بقابلية العبادة فيها

قبل الاستخلاف كانت البيئة الكونية إضافة إلى توازناتها الداخلية وقبولها للانغراس الإضافي للأنواع فيها، بما في ذلك النوع البشري الوافد مستقبلا، تختزن خاصية الحكمة من خلقها. إنها خاصية وظيفة الوجود كمطية لعبادة الله وحده توضع أمانة على عاتق أي مستخلف فيها: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾(طه:٥٥)، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦). وفي مرحلة الخلق والإعادة والإخراج هذه، تستنفد عملية اللقاء بين الإنسان والكون لتترتب عنها حصيلة العبادة كرصيد لمستوى العمل وفق هدى الله في الحياة الدنيا ينبني عليه بفضل الله عز وجل حرث الآخرة.

وتأتي عناصر البيئة منسجمة مع حاجات العبادة وجمالية التوافق بينها وبين مواقيت الصلاة، أو سنن الوضوء أو التقلب في الساجدين عبر بدن خلق في أحسن تقويم تطوى ركبه دون عناء، وتنحني جباهه دون ممانعة من جاذبية الأرض، أو التسريع لحركات الجوارح دون صدام في توازن ودقة من دوران الأفلاك إلى امتصاص الخلايا، أو من نشاط الذرة إلى سريان المجرة.

إنه الإنسان يريد التسبيح فتستجيب شفتاه وحركة لسانه وضغط دمه وحبال صوته ومجاري الهواء في صدره وأمواج الصوت حوله ومصادر الطاقة وغير ذلك من المكونات البيئية في الأنفس والآفاق، مما يستعصي بسطه في هذا المقام. إنها البيئة الأرضية أعدت لتصاغ مكوناتها في عملية التحويل بالعبادة وعلى بساط التوجه إلى الآخرة في ظل الاستخلاف ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾(الأنبياء:١٦)، ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(الدخان:٣٩).

لقد كانت الأرض بيئة بتوازن الخلقة، ثم بيئة بقابلية الانغراس البيئي بالاستخلاف الغريزي، ثم بيئة بكونها مختبرا يقبل الأسماء ويسمح لمن تعلمها باستغلال وتحويل عناصر البيئة لحرث الدنيا أو الآخرة على قدر اهتدائه فيها بروح الوحي: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾(الشورى:٢٠).

إنها الأرض بيئة العبادة والحفاظ عليها وعلى من فيها قمة العبادة والرحيل عنها أقوى دافع لحسن تحويلها لأنها مطية استدامة ما بعدها. ■

(*) باحث في قضايا البيئة والتنمية / المغرب.



التديّن والتحضر، نحو تواصل إيجابي

د. عبد الرزاق وُورقية*

إن نزول الإنسان على هذه الأرض لم يكن عبثا، وإنما كان لمقصد أسمى وهو عبادة الله ﷻ. ومفهوم "العبادة" لم يكن في أصله ضيقا كما يعتقد بعض الناس، وإنما يشمل جميع حركات المكلفين وسكناتهم بحيث تصبح داخلة في قانون الامتثال لله تعالى، ومن ذلك تعتبر عمارة الأرض من صلب الأعمال التعبدية. لذلك فالتكريم للإنسان بجميع أنواعه كان –أصلا– من أجل تحقيق هذه الغاية، إلا أنه مع مرور القرون المتطاولة نسي الإنسان المقصد من خلقه، وغابت عنه الحكمة من وجوده، فكانت ذلك مجالا مناسبا لبعثة الأنبياء، وتقييض الصالحين والحكماء من أجل تنبيه الناس إلى المقصد من خلقهم. وفي العصر الحديث لما تطورت الحضارة الإنسانية ماديا، وبلغت شأوا عظيما اختلف الناس في النظر إليها، حيث ظهر فريقان على طرفي نقيض أحدهما، وهو من ظاهرية الفهم للنصوص الدينية: ذهب إلى أن هذه الحضارة وما يتعلق بها من تحديث وتطوّر مُعارض للدين ومناف لقيمه، والفريق الثاني، هم بعض أدعياء الحداثة: ذهبوا إلى أن التدين وصف معرقل للحضارة، وبرروا نظرتهم للموضوع بتصرفاتِ طائفة محسوبة على الدين، من الذين أساؤوا فهم الدين ومقاصده، فنشأت عن ذلك معارك فكرية بين فريقين عظيمين في الأمة على مدى قرنين من الزمان تقريبا منذ ظهور النهضة الحضارية الأوروبية الأولى. وآناء هذا الجدال الفكري تم تداول مصطلحات يصدم بعضها البعض كالتحضر والتدين، والحداثة والرجعية، والتفتح والتزمت... إلخ، واستمرت النقاشات السفسطائية دون جدوى، وضيعت أزمانا وجهودا وأقلاما من غير طائل بسبب إشكال مفتعل، أو بسبب عدم تحرير

محل النــزاع. ولو أن الفريقين احتكموا إلى الفهم الصحيح للدين والتاريــخ والواقع والعقل لما اضطروا إلى هــذه المنازلة الفارغة، ولكسبوا شــروط التقدم، ولارتقت الأمة مرتقى عظيما، ولكن هؤلاء وهــؤلاء احتكموا إلى مجرد التعصــب والأغراض وقبلوا بجدوى النــزاع، فلم يفتروا عن إحياء إشكاله كلما سعت الأمة للنهوض والتقدم، معرقلين ســيرها بقوة أكثر من حجم المشكل أصلا الذي وقع بشأنه الخلاف.

وفي هذه السطور التي نتشرف بكتابتها في مجلة "حراء" الغراء يليق بنا إثارة الموضوع لا لنعيد إحياء المعارك القديمة، وإنما لفتح الآفاق أمام نظرة مســتقبلية جديدة تدفع بمسيرة الأمة الحضارية إلى الأمام دون تعثر، ســاعية نحو الشهود، غير ملتفتة لسفاسف الخواطر، ولا لعوادي الدهر، ملتمســة الطريق الوسط للنظر إلى أمــور الدين والدنيا. من هذا المنطلق نحاول تحرير محل النــزاع، بتفسير مصطلحات؛ التحضر والحضارة، والدين والتدين، متتبعين في ذلك منشأ خصائص التقدم وعلاقتها بالدين، وكاشفين النقاب عن الوهم الواقع في المســألة، وعن الفرق بين التحضر وأدعيائه وبين الدين وسوء فهم الدين، مستندين إلى التاريخ وأهله، والواقع ومقتضياته، ونصوص الوحي ومقاصدها، موجهين كل هذه الفروق والتدقيقــات نحو تطوير نظرة إيجابيــة للموضوع وبالله التوفيق.

مفهوم التدين

يطلق الدين في كتب اللغة عموما على ما يلي: العادة، والعبادة، الطاعة، الجزاء، القضاء، المجازاة، الحســاب، الحكم، الإكراه، الإحسان، الحال، الداء، الســيرة، الورع، الاستيلاء، السلطان، الملك، الذل، العز، الخضوع، الإســلام، التوحيد، كل ما يتعبد بــه.. إلخ. وتتوزع هذه المعاني اللغوية على حســب ما تضاف إليه لفظة الدين، فبالنســبة لله ﷻ تعني القهر والسلطان والعظمة والعزة وكل ما يــدور في فلك هذه المعاني من التعظيم، ويكون الدين بالنســبة للفــرد المتدين الخضوع والانقيــاد لمن دان له، ويكون المعنى بالنســبة لقولنا "دان بكذا": الشــريعة والقانون الذي التزم به المتدين والتزم بالســير على قواعده وهو المتعبد به.

وفي الاصطلاح عرَّف علماء المسلمين الدين بتعريفات كثيرة أشــهرها وأجمعها هو أن الدين "وضع إلهي يسوق ذوي العقول باختيارهــم المحمود إلى الخير بالذات"، وهــو ما يصلحهم في معاشــهم ومعادهم. فإن الوضع الإلهي -هنا- هو الأحكام التي جاء بها نبي من الأنبياء عليهم الســلام. والتدين -بناء على هذا التعريف- هو التزام هذه الأحكام والســعي لتحقيق مقاصدها في الأرض. وســلامة التدين تتركب مــن أمرين أحدهما: الفهم الصحيح لهذه الأحكام، وثانيهما: الاتباع الســليم لهذه الأحكام الإلهية وبتجرد كامل من الأهواء الذاتية.

فطرية التدين

الفطرة بالكسر الخلقة أي الطبيعة التي صور عليها اللهُ تعالى الخلق في الأصل قبل طروء التغيرات الواقعية عليه. فالإنسان قبل وقوع المؤثرات الخارجية عليه متدين بطبعه، حيث الدين كان ملازما له منذ القديم وإلى عصرنا الحالي. وبالرغم من ظهور بعض الثقافات اللادينية في العصر الحديث ما زال أربعة أخماس من سكان العالم متدينين بصورة عملية. ويدل على فطرية التدين أدلة نقلية وأخرى عقلية. فمن الأدلة النقلية:

قــول الله ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًــا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(الروم:٣٠) بمعــنى اتبعْ فطرة الله، أي خلقة الله التــي خلق عليها البشــر وهي الدين الصحيح. وقول النبي ﷺ: "كلُّ مولــودٍ يولَد علــى الفطرة"، معناه أن الله فطر الخلق على الإيمان به والفطرةُ منه الحالة، كالجلسة والرِّكبة، والمعنى أنه يولد علــى نوع من الجبلّة والطبع المتهيّئ لقبول الدّين، فلو تُرك عليها لاســتمر على لزومها و لم يفارقها إلى غيرها، وإنما يَعْدل عنه من يَعْدل لآفة من آفات البشر والتقليد. وقيل: معناه كلُّ مولودٍ يولد علــى معرفة الله تعالــى، والإقرار به، فلا تجد أحدا إلا وهو يُقِرّ بأن له صانعا، وإن سمّاه بغير اسمه، ولو عبَد معه غيره.

والحديــث الذي أخرجه الإمام أحمــد عن أبي بن كعب في قول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِــهِمْ﴾(الأعراف:١٧٢)، قال: جمعهم فجعلهم أرواحا، ثم صورهم فاســتنطقهم فتكلموا، ثم أخذ عليهم العهد والميثاق ﴿وَأَشْــهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِم أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، قال: فإني أُشهد عليكم الســمواتِ السبعَ والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم عليه السلام أن تقولوا يــوم القيامة لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لا إله غيري، ولا رب غيري، فلا تشركوا بي شيئا، إني سأرسل إليكم رســلي يذكّرونكم عهدي وميثاقي وأنزل عليكم كتبي، قالوا: شهدنا بأنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك، فأقروا بذلك".

أمــا الأدلة العقلية فتتلخص في أمرين أحدهما: قدم التدين في أغلب الحضارات الإنســانية، والثاني: استمرار التدين في أغلب البشر وملازمته للتفكير والسلوك البشريين.

وإذا ثبتت فطرية التدين فإنه من المستحيل إقناع البشر بالفراغ الروحي والعبث واللامعنى، لذلك باءت جميع محاولات اللادينيين بالفشل عند عزمهم هدم عقائد الأديان لكون هذه الأخيرة تدعمها الفطرة الإنسانية، وما يدعون إليه تمجه الطبيعة البشرية. من هنا وكما سوف نرى لن تستغني الحضارة الإنسانية عن دعم الفطرة الدينية لتوجهاتها.

مفهوم التحضر وعناصره

بالرغم من التطور الحضاري الذي شهده الإنسان بقي مفهوم الحضارة من المفاهيم التي يتعسر التدقيق في معناها: وقد حاول الكثير من علماء الحضارة البحث في محددات موضوعية للتحضر والتي تسمح بإطلاق لفظ الحضارة على سلوك مجتمع ما، وفي بحثهم هذا توصلوا إلى عدة أنواع من العناصر التي بتوفرها يمكن الحديث عن الحضارة.

١-التعقد والتمدن: بالنسبة لمعيار التعقد يمكن القول أن المجتمع المتحضر هو المجتمع الذي بلغ درجة من التعقيد والاختلاف بين أجزائه وأعضائه بناء على مهام وأنشطة، مما يجعل حجم هذا المجتمع يتجاوز الخلية الاجتماعية البسيطة مثل العشيرة أو القبيلة.

وبالنسبة للتمدن أو التعمير، فإن التمدن (أي تشكل المدن وتكاثر البنيان والتعمير) معيار محدد للحضارة وهو من منازعها كما عند ابن خلدون. وعند الأركيولوجي البريطاني "جوردون تشيلد". التمدن ليس هو منطلق الحضارات فحسب، وإنما هو الرمز والنتيجة. فبناء على هذا المعيار نميز بين حضارة ما قبل التمدن، والتي لم تأخذ منحاها الحقيقي إلا بعد ظهور المدن، إذ الحضارة بحسب هذا المنظور وإن ظهرت قديما فلم تتضح معالمها إلا مع ظهور الأشكال الأولى من مدن ما بين النهرين "ميزوبوتامي"، ثم تتابع التمدن في العصر البرونزي منطلقا من ثلاثة معاقل هي الميزوبوتامي، وهي ما بين نهري دجلة والفرات، وحوض النيل، وحوض نهر الهندوس. وحسب جوردون تشيلد فمعيار التمدن يشمل المعايير الأخرى، إلا أنه يبقى أوضحها لأنه في المدن يمكن تجميع الجهود، وترسيخ البنيات الاجتماعية والأنشطة المتخصصة التي تتيح الفرصة للاختراعات والتطورات التقنية والفكرية.

٢-معيار التقنيات: حيث يعتبر التطور التقني معيارا محددا لمعنى الحضارة عند الكثير من المؤرخين، ولاسيما المتخصصين في التاريخ القديم، حيث اتخذوا هذا المعيار قاعدة لتصنيفاتهم، إذ اتضح لديهم أن الإنسان استعمل المعدات المخترعة وفق ترتيب معين من الحجر المنحوت إلى الحجر المصقول، وصولا إلى المعادن والفلزات، ومن جهة أخرى وبصورة ترتيبية كانت البداية بتربية المواشي ثم الفلاحة ثم استعمال الطاقة المائية الهيدروليكية، وصولا إلى الصناعة. إلا أن استعمال التقنيات لا يأخذ معناه الحضاري إلا إذا وضع في نظام اجتماعي يعكس توجهه الاقتصادي، فمن جهة تطور الفلاحة أنتج نظام الملكية الذي أدى بدوره إلى الصراع بين الطبقات حسب ماركس وأنجلز والتي تعد عندهم العنصر المحرك للحضارة والتاريخ.

٣-معيار العوامل الفكرية والمعرفية: والتطور التقني بدوره عموما هو نتيجة للتطور الفكري والمعرفي. ويعتبر ظهور المعارف والعلوم والفنون والكتابة، السمة الأساسية لأغلب الحضارات الكبرى المشهورة. ففي هذه الحضارات ظهرت علوم الهندسة والرياضيات والفلك وباقي الفنون. فمن هنا يتحدد معنى الحضارة بتوفر هذه الأنشطة الفكرية والمعرفية.

٤-المعيار الديني: وهو الأصل في هذه المعايير كلها، فالملاحظ أيضا أن أغلب الحضارات الكبرى ارتبطت بالدين، بل إن التمدن الذي هو أساس الحضارة قام حول المعبد كرمز مقدس يجتمع فيه الناس، ويستقرون وينشطون تجاريا حوله. ومن ثم ساد عند كثير من علماء الحضارات تصنيف الحضارات الإنسانية بناء على المعيار الديني، فيقولون حضارة مسيحية، حضارة إسلامية... حيث كان للدين الأثر الكبير في قيام حضارات كبرى في التاريخ واستمرارها على مدى آلاف السنين، لأن الدين يمتلك أهم مقوم لذلك، وهو القيم والمبادئ أو الفكرة الدينية على حد قول الحكيم مالك بن نبي.

ومجمل القول: إن مصطلح الحضارة يستعمل لأداء معنيين اثنين أحدهما: نظري يتوجه إلى القيم والمبادئ والمعتقدات والأفكار التي تحدد نمط تلك الحضارة، وتصبح هذه القيم ميزتها الأساسية، وهنا تلتقي الحضارة مع الثقافة كما ذهب إلى ذلك ثلة من أهل الاختصاص، وهنا أيضا يبرز أثر الدين في صنع الفكرة المؤسسة والمحرضة على البناء الحضاري. وثانيهما: معنى عملي، ويقصد به نمط الحياة التي يحياها الفرد والمجتمع، ولاسيما في بعدها المادي العمراني، وهنا تترادف الحضارة مع المدنية.

خصائص التحضر

إن التحضر بوصفه سلوكا عاما وشاملا، وظاهرة تصنف بحسبها الأمم لابد وأن يتجلى في الواقع، متميزا بخصائص يختص بها. وعبر النظر في التاريخ ومسار الأمم في تطورها ورقيها يمكن

استنتاج مجموعة من السمات البارزة للتحضر، منها:

الكســبية: إن التحضر أمر كسـبي وليس شيئا جبليا، وإن كانت المهيئات للتحضر جبلية في الإنســان بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة:٣١) أي أصول العلوم كلها التي بنيت عليها الحضارة وشيد على أساسها العمران.

الاشــتراك بين الأمم: بمعنى أن الحضارة الإنسانية هي نتاج جهود وإسهامات جميع الأمم. فكل أمة أدلت بدلوها في تشييد صرحها من خلال علـم من العلوم أو فن من الفنون أو اختراع أو اكتشاف، ولم تقم الحضارة البشرية من فراغ، وإنما هي نتيجة تراكـم قرون من الناس من مختلـف الأجناس ومن مختلف بقاع الأرض. وإلى هذه القاعدة ذهـب أغلب علماء الحضارة، حتى قالت المستشرقة الألمانية المنصفة زيغريد هونكه: "بساط الحضارة بساط نسـجته وتنسـجه أيد كثيرة، وكلها تهبه طاقتها وكلها تسـتحق الثناء والتقدير"، وقال أحـد الحكماء: "إن علم العالَم مبثـوث في العالَم بين جميع مـن في العالَم". وعلى هذا لا تصح دعوى التفرد بالإنجاز الحضـاري التي صدرت في بعض مراحل العصر الحديث من لدن بعض مؤرخي الفترة الاستعمارية، حيث بمقتضاه صنفت الأمم إلى مبدعة وأخرى مستهلكة متوحشة.

التداولية: فالتحضر دول بين المجتمعات البشـرية، إذ ينتقل بين الأمم بحسب استعدادها، وقابليتها لمقوماته ومقتضياته. فأيما أمـة نهضت ونفضت غبار التخلف عن طريقها اسـتطاعت أن تكسـب دورها وموقعها بين الأمم المتحضرة، إذ ليس التحضر والتخلف أمرين جبريين دائمين، فكم من حضارة كانت شامخة وانهارت إلى الحضيض وكم من أمة متخلفة نهض أبناؤها وارتفعت إلى مصاف الرقي، والتطور. وهنا يسقط ادعاء أي مجموعة بشرية الانفـراد بالتحضر، فقد تدور الدائرة وتضعف مقدرات أفرادها عـن العطاء ويسـلب منها ذلك التقدم إلى أجل غير مسـمى.

التطبع: للتحضر أوصاف تتصف بها الأمة المتحضرة حتى تصطبغ بها، وتصبح بمثابة طبائع لصيقة بها تميز تقدمها على غيرها من الأمم المتخلفة. فالتحضر بما هو وضع إيجابي له طبائعه الإيجابية، كالعلم والنظام والحوار والعمران والنظافة والحفاظ على البيئة، وحسـن استعمال الموارد الطبيعية والأمن والعدل والسلام. وقد تمر القرون المتطاولة وتعرف تلك الأمة بتلك المكارم. وفي مقابل التحضر يأتي النقيض له "التخلف"، الذي هو وضع سلبي له خصائصه السلبية، حيث يعرف بعلامات التقهقر والانهيـار وفقدان القيم والجهل والفوضى والتظـالم والتهالك والعنف والتدمير والقذارة... وقد تمر أزمان طويلة ولا تنفك أمة عن هذه العلامات حتى تعرف بها.

التحضر والتدين: تقارب المقاصد وتكامل الوسائل

فبعد تعريف الدين وبيان فطريته، وتحديد مفهوم التحضر وجرد خصائصه، يسـوغ الحديث عن إمكانية التواصل بين الطرفين. وذلك يستقيم أمره على مستوى المقاصد والوسائل المؤدية إليها، ولاسـيما إذا علمنا أن لكل من الديـن والحضارة مقاصد يتوق لتحقيقها حكماء البشـر. وعند إجالة النظر في منطلق الدين وفي مسـاعي الحضارة البشـرية، نجد أن هناك تقاربا بين ما جاء به الأنبياء كمقاصد لشرائعهم الموحى بها، وبين ما انتهت إليه العقول الراجحـة من أصحاب الحكمة والمعرفة. فالشـرائع من جهة لا تناقض قضايا العقول، والعقول السليمة لا ترفض الشرائع، فيوشك أن تتحد المقاصد العمرانية وتتكامل الوسائل والطرائق لتحقيقها.

فمن جهة تقارب المقاصد بين التدين والتحضر يتجلى الأمر عند الكشـف عن مقاصد كل واحد مـن الطرفين على حدة. فبالنسبة للدين الصحيح بوصفه أحكاما وشرائع تنظم حياة البشر في هذا الكون لم يأت إلا لمصلحة البشـر، حيث نصت الشرائع السـماوية على أن المقصود من أحكامها صلاح الخلق وعمارة الأرض ومحاربة الفساد والضرر. وهذه الغايات هي ما عبر عنها علماء الأصول بمقاصد الشـريعة من الخلق، يقول الإمام الغزالي: "نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسـة، وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم. فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة".

وهذه المقاصد الدينية من الاجتماع الإنساني كما هو واضح تؤول إلى حفظ خمس ضروريات "الدين والنفس والعقل والنسل والمال"، بها تتحقق السعادة البشـرية الدنيوية والأخروية. يقول الإمام الشـاطبي: "فأما الضرورية فمعناها أنها لابد منها في قيام مصـالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على اسـتقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين".

أما بالنسـبة لمقاصد البشرية من التحضر فقد ذهب الجمهور من عقلاء البشر، من فلاسـفة وحكماء ورجال العلم المنظرين للاجتماع البشـري، إلى أن المقصود الذي يطمح إليه الإنسـان في اجتماعه ومدنيته يحوم دائما حول تحقيق السـعادة البشرية، باسـتيفاء الرغبات والحاجات المعقولة والممكنة للبشـر. وهذا مذهب أغلب محبي الحكمة بدءا من أوائل الحكماء والفلاسـفة كأفلاطون في جمهوريته، والفارابي في مدينته الفاضلة، وابن سينا في سياسته المدنية... انتهاء بالعصر الحديث حيث نادى جمع غفير

من علماء ومفكرين بتوجيه الحضارة نحو تحقيق السعادة البشرية. واستمر الأمر على ذلك في عصرنا الحالي إذ لا يختلف أهل الفكر في ضرورة ترشيد التحضر والتقدم نحو إسعاد البشر. وكثير من هؤلاء حاولوا تحديد معايير محددة لهذه السعادة، وعموما تدور آراؤهم على تحقيق الأمن والسلام والكفاية وجميع مقومات استمرار الوجود الإنساني المادي والروحي...

ويتحصل من هذا أن هناك اتفاقا بين الأنبياء والحكماء على السعي إلى تحقيق السعادة الإنسانية، فالأنبياء دعوا من خلال ما جاؤوا به من شرائع إلى إصلاح حال البشرية بالحفاظ على القيم النبيلة والأخلاق الفاضلة، وعلى رأسها تلك الكليات الخمس الضرورية. والحكماء دعوا في نظرياتهم أيضا إلى مدن فاضلة يسودها الأمن والسلام والعدل.

ومن جهة تكامل الوسائل المؤدية إلى هذه المقاصد فيمكن القول إنه إذا تقرر اتحاد وتشابه الأهداف، فالوسائل قد تختلف بين الأديان السماوية نفسها وإن اتحدت عقائدها، كما تختلف بين الحكماء والمفكرين. وذلك أمر طبيعي لكون هذه الوسائل ما هي إلا إجراءات عملية تخضع إلى التقديرات الزمنية المشخصة حيث يختلف ذلك بحسب الظروف والأحوال. ولئن كان اختلافها بين الدين ورجال الحكمة ليس اختلاف تضاد وتناف، إنما هو اختلاف تكامل. فإنه مثلا إذا نص الدين على تحسين وسائل وتقبيح وسائل أخرى نجد في الغالب أن هناك تواطؤا بين أهل الفكر ومنظري الحضارات الإنسانية على ما يقارب نفس التصنيف. لذلك في الغالب لم تخرج مواثيق حقوق الإنسان والقوانين المدنية والجنائية عما تقرر من مبادئ في الدين كالإقرار مثلا بحرية الإنسان، وحقوقه المادية والمعنوية. وكذا وجوب الوفاء بالعقود وتحريم التظالم وقبح الجرائم، كالقتل والسرقة والاغتصاب والتعذيب إلى غير ذلك من أمور عليها قامت المدنية المعاصرة.

نحو تدين صحيح وتحضر إيجابي

يحاول طائفة من أهل الفهم التبسيطي للدين، البحث في نصوص الوحي للعثور على ما به يعارضون بعض مقتضيات الحضارة، بدعوى مخالفتها لما يرونه أحكاما دينية وخروجها عن الشريعة بالكلية، ممثلين ببعض الجزئيات التي لم يأخذوا بها ضمن إطارها المقاصدي التشريعي، كبعض ما ورد في النحت والتصاوير والزخرفة وبعض أنواع اللباس وبعض الآلات التكنولوجية وغير ذلك مما لا يستقيم شاهدا على ما يقولون، بل قد يكون مرده إلى بعض الفهوم البدوية للدين التي قد تكون وليدة بيئة معينة بعيدة عن فهم الدين من جهة وعن إدراك عمق الحضارة من جهة أخرى.

وهذا الفهم الشاذ لهذه الطائفة قد يكون حجة عند أولئك المتطرفين في الجانب الآخر، الرافضين للتعامل مع الدين بشكل إيجابي؛ إلا أنه وفي ضوء ما سبق يمكن التعقيب على الطائفة الأولى باستقراء نصوص الوحي والنظر إليها في ضوء مقاصد الشريعة الكلية. فالذي يتتبع نصوص القرآن الكريم يعثر على كثير من الأوامر والمندوبات لأجل دعم مسيرة الإنسان نحو عمارة الأرض، وحسن استثمار مسخرات الكون، وحماية الأرض من الفساد بعد الإصلاح، والنهي عن الظلم والاعتداء إلى غير هذا من أمر بالفضائل ونهي عن الرذائل، حتى قال الإمام العز بن عبد السلام: "والشريعة كلها مصالح، إما تدرأ مفاسد أو تجلب مصالح. فإذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فتأمل وصيته بعد ندائه، فلا تجد إلا خيرا يحثك عليه أو شرا يزجرك عنه أو جمعا بين الحث والزجر".

ويمكن التعقيب على الطائفة الثانية بأن الدين لا يؤخذ من مجموعة بشرية قليلة تدعيه، وإنما يؤخذ من مصادره الأصلية، في ضوء قواعده الخاصة، كما لا يمكن التسليم بلزومية التقدم في حالة التخلي عن الدين، وإنما قد يحصل العكس. فكما أسلفنا فالدين يعد من أهم المعطيات والشروط المؤسسة لأولى الحضارات ولأكبرها أيضا، وما زال الدين معينا لا ينضب للقيم والمثل العليا لأغلبية سكان العالم، حتى قال أحد علماء الحضارة المحدثين: "إن الدين يستجيب لحاجة عميقة في الإنسان، ولو شئنا أن نعبر عن هذا بمصطلحات الفلسفة الوجودية لقلنا: إنها الحاجة لقوة الوجود التي تهزم اللاوجود الذي نلقاه ونعانيه في تجارب الموت، والعذاب والإخفاق والظلم والإثم وفقدان المعنى. ولو شئنا أن نعبر بلغة بسيطة مألوفة لقلنا: إن الدين يستطيع أن يمدنا بالمعنى الأخير للحياة، بمصدر وجودنا وغايته، أي بالإجابة عن السؤالين الخالدين، من أين، وإلى أين؟ وهو يستطيع أن يضمن لنا قيما عالية ومعايير غير مشروطة، أي علة مسؤوليتنا والهدف منها. والأديان حريصة على سعادة الإنسان، وذلك بتقديم التوجه الديني الأساسي أي السند والعون والأمل، ومنحنا الكرامة الإنسانية والحرية الإنسانية، والحقوق الإنسانية، أي الأساس الذي يرتكز عليه العمق النهائي".

وإذا اتضحت استحالة الانفصال بين الدين و التحضر، فدعوتنا قائمة من جهة لأجل فهم الدين فهما صحيحا يتم به نفع البشرية لتحقيق مقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧)، حيث لم يقل "عنتا ولا مضرة للعالمين"، ومن جهة ثانية ينبغي توجيه الحضارة الإنسانية إلى الحفاظ على القيم النبيلة، والتعامل بإيجابية مع

الأخلاق الفاضلة. فإنها سر استمرارها وتوازنها، وانعدامُها يؤدي إلى خرابها وخراب العمران بعبارة العلامة ابن خلدون.

أعظم الإنجازات الحضارية ذات منطلق ديني

إن المعيار الديني في تشكيل المبادئ والقيم التي تبنى عليها حضارة ما، أمر مقرر بشواهد التاريخ والواقع، بل وحتى المنجزات المادية للحضارة كانت عبر التاريخ تستلهم من الدين وتسترشد به في تشييد صروحها. فبالاستقراء عبر آثار الأمم ومتاحفها، نجد أعظم المباني هي للمساجد والكنائس (أي أماكن العبادة). وأنفس التحف الفنية هي ما تركه نبي أو رسول أو حكيم أو راهب (أي رجل دين)، أو فنان أنجزه لغرض ديني، وأكثر من هذا تعتبر المخطوطات الدينية المحفوظة في الخزانات العالمية أعظم إرث ثقافي وحضاري مخلد في التاريخ، حتى إنه ما عرفنا الكتابة و اللغات إلا بالكتب المقدسة، بل وأعظم من ذلك هو أن الإشكاليات الوجودية ذات الأثر في تطوير علوم الفلك والهندسة والجغرافيا... انطلقت من الحلقات الدينية. ومن هناك يتبين أنه من الصعب قبول تنكر أدعياء الحداثة للإسهام الديني في بناء ما تتمتع به الإنسانية اليوم من مقومات الاجتماع البشري السعيد.

نحو توأمة التحضر والتدين

إذا تقرر أنْ ليس هناك تعارض بين التحضر والتدين في حقيقة الأمر، وإنما التعارض ناشئ عن الأفكار المسبقة لبعض الناس نتيجة سوء فهم للنص أو الواقع، فإننا وبناء على معطيات معرفية وتاريخية وحضارية يمكن الخلوص إلى وجود تلازم بين الدين والتحضر منذ القديم، ويعسر الفصل بينهما. وكل من سعى إلى فرض التعارض بينهما وقع في خلط عظيم، وورط مجتمعه في صراعات لا تنتهي، تنجم عنها جراحات لا تلتئم قد تسوق الأمة إلى مدارك التخلف.

ومن منظور مستقبلي: فبدل أن نسعى إلى إثبات الفروق والهوات بين الدين والحضارة، فإنه يليق بالأمة بجميع أفرادها الانخراط في توأمة إيجابية بين التدين والتحضر من خلالها تصبح الحضارة خادمة للمقاصد النبيلة للدين، ويصبح التدين عملا إيجابيا ومغنيا لمسار تطور الحضارة. فكما لا يخفى أن التحضر دون مبادئ وأخلاق يوشك أن يؤدي إلى الخراب، وأن التدين دون عمارة الأرض تدين ناقص، مخل برسالة الإنسان فوق هذه الأرض، فحتى ولو كان الظرف شديدا كقيام الساعة أَمَرالدين بغرس الأشجار والحفاظ على العمران، مصداقا للحديث الشريف: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها" (رواه الإمام أحمد).

فكل ما يريده الدين من الحضارة هو الحفاظ على القيم الإنسانية النبيلة المجملة في مقاصد الشريعة الضرورية. وكل ما تطلبه الحضارة من الدين هو أن يكون عنصرا إيجابيا، داعما لتطورها واستمرارها، وهذا حاصل بالنسبة للدين الإسلامي حيث النظر إلى الكون من منظور التسخير، وأكل الطيبات من الرزق، والتعاون على البر والتقوى. إذ رسخ الإسلام بذلك لجمالية رائعة تربط كتاب الله المسطور بكتابه المنشور، بعيدا عن غرائز الصراع والتفكك والعبث.

وختاما يجوز لنا القول إن الإسلام بوصفه، الدين السماوي، البالغَ إلينا كتابه بالمعجزة والتواتر، لم يكن أبدا في يوم من الأيام معرقلا للفعل الحضاري، بل بالعكس من ذلك كان مُنشئا لحضارة مستقلة بذاتها ابتدأت بالأمر بالتعلم "اقرأ"، واستمرت بأوامر الاعتبار في الكون والتفكر والتعلم والحجة والحكمة. وساهمت من جانبها في تطور الحضارة الإنسانية، وقد شهد بهذا العقلاء من الناس شرقا وغربا ومن لدن جميع الأمم.

لذلك لا يليق بالمسلمين اليوم الالتفات إلى دعاوى التعارض والتضاد المفتعلة بين الدين والرقي الإنساني الحضاري، فإن الانشغال بذلك ضرب من التفاهة والسفاهة الفارغة. وإذا تقرر هذا وبانت حجته، فإننا نسجل أن هناك وعيا متناميا لدى فئة عريضة من المسلمين، استطاعوا الجمع بين الأوامر الدينية والمتطلبات الحضارية فأصبح عندهم التحقق الكامل لمفهوم "التدين الحضاري"، حيث اجتمعت فيهم مقاصد الدين ومقتضيات الحضارة، فإن كانوا في الدين فهم الواقفون عند أمره من حيث الالتزام بالأوامر والاجتناب للنواهي. وإن كانوا في الحضارة فهم أهلها الأصلاء، من حيث الذكاء والخدمة والنظام والتمكن البارع من الأخذ بأسباب التحضر دون إخلال بالمقاصد الإنسانية النبيلة من تسامح وكرم ونظافة ورحمة. ذلك هو المنهج الوسط الذي يجمع محاسن الأشياء، وينمي الجوانب الإيجابية أينما كانت، ويتقي المفاسد في أي جهة كانت.

تلك أمة الوسط التي نص عليها القرآن جامعة بين الخيرية في المعاش والمعاد، تغرس الفسيلة والساعة قائمة، لا يثنيها عن البناء خطورة الموقف، ولا مشاكسة المشاكسين. ■

(*) جامعة سيدي محمد بن عبد الله / المغرب.





كيف نبني ثقافتنا الإسلامية وكيف نقدمها إلى الآخرين؟

أ.د. خالد الصمدي*

في بداية سنة دراسية، استُدعيت من طرف إدارة المؤسسة التي أشتغل بها، وطُلب مني التداول في إشكالية تربوية والبحث عن حل لا يستند إلى القرار الإداري الصارم، ولا يمس في نفس الوقت الصلاحياتِ التربوية للأستاذ. وقد اعتقدت بداية أن القضية تتعلق بشأن من شؤون التسيير التربوي بشعبة الدراسات الإسلامية، مما يجري فيه التداول عادة بين رئيس الشعبة وإدارة المؤسسة. إلا أن الأمر كان غير ذلك، ولم يكن من طينة الإشكالات التربوية اليومية العادية، بقدر ما كان حالة تطرح لأول مرة بالمؤسسة. ذلك أن طالبة بشعبة من شعب اللغات الأجنبية طلبت رسميا من إدارة المؤسسة إعفاءها من حضور حصة الثقافة الإسلامية، لأنها يهودية الديانة، ولأنها لا تتوقع من أستاذ يدرس الإسلام إلا هجوما على اليهود بخاصة، والفكر المخالف بعامة، ولأنها تمتلك قناعات دينية غير مستعدة أن تكون موضع مساءلة أو نقاش. ولما كنت الأستاذَ المعني بتدريس المادة فقد عرض عليّ الأمر للتشاور والتداول.

كان من الطبيعي أن أقول لإدارة المؤسسة: "إن المادة منصوص عليها في القوانين التنظيمية وليس هناك أي مسوغ قانوني لإعفاء طالب أو طالبة من دراستها، وأن الطالبة في هذه الحال ملزمة بالحضور والاختبار في المادة"، وينتهي المشكل عند هذا الحد. غير أنني فضلت أن أسلك طريقا آخر يتجاوز قساوة القانون، ويحفظ السير العادي للدراسة، والأهم من كل ذلك يزيل الغشاوة ويكسر الحاجز النفسي الذي يحول بين الطالبة ودراسة مادة الثقافة الإسلامية. وهذا يقتضي فتح حوار هادئ معها ومع زملائها وزميلاتها في الفصل الدراسي، في سياق تدعيم ثقافة الحوار والفكر النقدي والحق في الاختلاف وإبداء الرأي والاطلاع على فكر الآخر.

عوائق الانفتاح وعقباته

وقبل أن أنقل القارئ الكريم إلى النتيجة النهائية لهذا المسعى، ينبغي لنا جميعا أن نبحث عن أسباب وجودِ مثل هذا الموقف في سياق منظومتنا التعليمية التي أفرزت -وتفرز- عقلية الخوف من الفكر الآخر واتخاذ مواقف مسبقة منه، وغياب القدرة على النقد والتحليل والتفكير، سواء لدى هذه الطالبة أو غيرها باعتبار انتشار الظاهرة وخطورة انعكاساتها التربوية والفكرية. وأعتقد أن ما يحول بين المرء وعقله أربعة عوائق لا تكاد تسلَم منها منظومتُنا التعليمية ولا سبيل لرقيها إلا بإزاحتها.

١-الاعتماد على التلقين كأسلوب غالب في التدريس وغياب مساحات للنقاش والحوار بين الطلبة والمدرسين في القضايا المختلفة، مما يجعل الطالب يتقبل الأفكار كحقائق غيرِ قابلة للنقاش، ويحتفظ في قرارة نفسه بقناعات كامنة وأسئلة محيرة تبرز حتما عند أول وهلة يتاح له فيها أن يقول، فيكون قوله في هذه الحال رد فعل مزاجي ضد الفكر "المفروض"، لأنه لم يسهم في بنائه ولا تبنيه وإنما وقف منه موقف المسلم المسالم.

وكثيرا ما ناقشت مع زملائي في بناء مناهج التربية الإسلامية أفكارا لا أحمل لها جوابا جاهزا، غير أنني أدفع بها إلى حمأة التفكير والمناقشة التربوية لعلنا نصل فيها إلى رأي تربوي مناسب. وذلك مثل إمكانية إدراج نصوص مخالفة للفكر الإسلامي في كتب التربية الإسلامية، ومن ثم فتح باب النقاش أمام التلاميذ لتقوية مناعتهم الفكرية وقدرتهم على تحليل وتفكيك الفكر المخالف، وإبراز مكامن الضعف والخلل فيه -إن كانت- بالحجة العلمية والدفاع العقلي الرزين عن الموقف الصحيح دون عاطفة عاصفة ولا فكر متذبذب لا يصمد أمام الحجاج العقلي والمنطقي.

يمكننا أن نناقش الحيثيات التطبيقية لهذه الفكرة والإمكانات التربوية لإدماجها في كتبنا المدرسية، والمحاذيرَ المتوقعة، وفي أي مستوى دراسي يمكن أن يكون ذلك، وبأية شروط، غير أنه لا يمكن بحال أن ننكر ميزة إدراج الرأي المخالف في مناهجنا التعليمية لما فيه من مناعة وقوة في بناء المعرفة لدى الطلبة، ألا ترى أن القرآن الكريم عرض أقوال إبليس وأتباعه من الكافرين، وجعلها آيات نتلوها ونتعبد بها، ونأخذ على ذلك أجرا وتصح بها صلاتنا، دون أن تضيق بها صفحاته، وهو الكتاب التعليمي الأول الذي لا مبدل له ولا نظير.

٢-السقوط في الدفاع العاطفي عن كامل المنتوج الحضاري للمسلمين دون تمحيص ولا نقد، إذ تجد المدرس أو مؤلف الكتاب المدرسي، يتحرج من طرح بعض الهنات المسجلة في تاريخنا الفكري، ويسقط في تبرير ما لا يبرر، وتبجيل ومدح كل المواقف دون تمحيص للأخطاء ولا كشف عن الزلات. وليس هذا من منهج الإسلام في شيء؛ فقد اشتهر عن علمائنا من المجتهدين قولهم "كل يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب هذا القبر" في إشارة إلى المقام المكرم لرسول الله ﷺ، وهم القائلون "ما وافق كتاب الله وسنة رسوله فهو مذهبي، وما خالفهما فاضربوا به عرض الحائط".

في ضوء ذلك لا يمكننا أن نعلم ناشئتنا تقديس ما لا يقدس والتسليم بكل فكر ينسب إلى عالم المسلمين وربطه بالإسلام جملة وتفصيلا، لأن من شأن ذلك أن يجعل هذا الدين العظيم يهن في نظر أبنائه حين يكتشفون في تاريخه أخطاء ارتكبها باسمه بعض رواده ونسبوها إليه تبريرا وتسويغا، أو كانت اجتهادات صالحة لزمانها ولم تعد كذلك اليوم، أو أخطاء لم ينتبه إليها أصحابها في حينها فذهبوا بالأجر الواحد.

ينبغي أن نربي في أبنائنا محبة العلماء وتقدير جهودهم والبحث عن النقط المضيئة في أخلاقهم وسيرهم، والاقتداء بسننهم في الاجتهاد والتضحية والإنتاج العلمي. كما ينبغي أن نعلمهم أن نقد الفكر له شروطه وآدابه، وأن حرية إبداء الرأي مكفولة، وأن تجريح الأشخاص مذموم ومستقبح، لكن الخطأ كل الخطأ أن نسقط في تقديس الأفكار والآراء واعتبارها منزهة عن النقد وإعادة النظر.

٣-السقوط في مطبة تبني الأفكار والأحكام المسبقة من الفكر الآخر لمجرد نسبته لغير المسلمين، فهذا انغلاق مذموم ينعكس سلبا على انفتاح الآخرين على الفكر الإسلامي ذاته، في حين أن البحث عن الصواب حيث يكون، والأخذ بالحكمة ولو من فم المخالف، واعتبار المنتوج العلمي البشري مجالا للبحث

والاختيار في ضوء مقاصد الإسلام وغاياته الكبرى التي تستدمج كل اجتهاد إيجابي نافع، هو المسلك القويم. فإذا نظرنا إلى القرآن الكريم وجدناه يقص علينا من قصص الأمم المختلفة ما يعتبر مجالا واسعا لأخذ العبرة والمثل. وإذا نظرنا إلى سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وجدناه يوجه بعض صحابته إلى تعلم اللغات الحضارية السائدة في عصره كالسريالية والفارسية للاطلاع على حضاراتهم. وإذا تصفحنا تاريخ الخلفاء الراشدين ومن اهتدى بهديهم من بعدهم، وجدناهم قد أدخلوا من تجارب الأمم الأخرى في تنظيم الدولة، كسك النقود ونظام الجبايات والبريد وغير ذلك من النظم الإدارية. وإذا اطلعنا على تاريخ الفكر الإسلامي، وجدنا اهتمام المسلمين بالترجمة من خلال تأسيس دار الحكمة في المشرق ومدارس قرطبة في المغرب، ووجدنا حوارات مفتوحة بين فطاحل العلماء والفقهاء المسلمين وغيرهم من الأحبار والرهبان من الشرعتين اليهودية والنصرانية، كل ذلك بهدف إبراز سماحة الإسلام وقوة سلطانه الفكري والعقائدي، وفي نفس الآن الاستفادة من كل اجتهاد يخدم البشرية ويرقى بها إلى أحسن حال. ولم يكن هؤلاء يضيقون ذرعا بالفكر المخالف، ولا يسارعون إلى اتهام أصحابه بالزندقة والشذوذ، لأن ذلك علامة على الانهزام.

وهنا نقول أنه كلما كانت المعرفة الإسلامية لدى المتعلمين محصنة بالقدرة على الحجاج الهادئ الذي هو ثمرة البناء الفكري السليم، اختفى العنف اللفظي والعناد الفارغ الذي يعلوه الصراخ والعويل كسلاح للعجزة والمتخاذلين، وليس الفكر الإسلامي بحاجة إلى مثل هذا الزبد.

٤–ترسيخ فكرة صراع الأديان في أذهان التلاميذ. فكل يهودي معتد بإطلاق في نظر المسلم، وكل مسلم أممي في ذهن اليهودي يجوز سلب ماله وتشريده في الأقاصي، وكل النصارى أعداء لهذا الطرف أو ذاك.. والحال أن مثل هذه الأفكار لا يستفيد منها إلا المتربصون بالدين عموما، الذين يخلطون المفاهيم ويساوون بين الجلاد والضحية، وغايتهم المثلى تحييد الدين عموما عن الحياة. وأقصر طريق إلى ذلك ترسيخ فكرة ربط الدين بالصراعات والخلافات. في حين أن الدين رحمة مهداة للناس، ينظم حياتهم ويضمن تعايشهم وتعارفهم، ويكون الحوار ولا شيء غير الحوار هو الأسلوب الأمثل لتعاملهم، وإلى الله بعد ذلك مصيرهم ومعاذهم.

ولئن كان القرآن الكريم قد تحدث عن المغضوب عليهم والضالين، وتحدث عن شدة عداوة اليهود للذين آمنوا، وأن كثيرا من الأحبار والرهبان يأكلون أموال الناس بالباطل، فإن تلك الأوصاف بالاستقراء مرتبطة بالأفعال الصادرة عن هؤلاء والمخالفة لتعاليم التوراة والإنجيل ذاتها ولا علاقة لها بروح تعاليم موسى وعيسى عليهما السلام. وقد ذم الله تعالى في القرآن الكريم تصرفات الظالمين والمنافقين والمعتدين والمطففين والخائنين والمستكبرين ممن هم في دائرة عقيدة الإسلام أيضا، لأنهم خالفوا تعاليمه بأفعالهم، كما ذم غيرهم من اليهود والنصارى دون أن يكون لذلك علاقة باليهودية والنصرانية كشرعتين منزلتين في مسيرة نزول شرائع الإسلام، والجامع في كل ذلك مخالفة تعاليم الدين والخروج عن مقتضياته.

ما ينبغي تقديمه للناشئة

إن الدين ينبغي أن يقدم للناشئة على أنه شرعة رب العالمين، وأنه عند الله الإسلام، وأن الإسلام بدأ نزوله من عند الله إلى البشر مع أول رسول، ثم نزل في شكل شرائع في زبور داوود وصحف إبراهيم وتوراة موسى وإنجيل عيسى عليهم السلام، وختم برسالة القرآن، وأن أتباع موسى من اليهود وأتباع عيسى من الحواريين قالو: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(آل عمران:٥٢)، وأن من تمام إيمانهم بكتبهم المقدسة غير المحرفة اتباعهم لمحمد ﷺ. فتلك مسيرة الإسلام الطبيعية من نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ. ولو تمسك الناس بتعاليم دينهم لما عاثوا في الأرض فسادا ولما سفكوا الدماء. والناس في ذلك بين مؤمن مصدق وكافر جاحد مكذب في إطار اختياره ومشيئته التي سيحاسب عليها حين سيلقى خالقه، ولم يكلف الله الناس بعد ذلك إلا بالذكرى التي تنفع المؤمنين.

أما ما سوى ذلك من ظلم واعتداء وانتهاك للحرمات وسفك للدماء وهدم للبيوت وسلب للأموال والأوطان، فهو سلوك لا دين له، ينبذه من كل الأسوياء والعقلاء، ودفعه واجب بكل السبل لأنه سلوك ضد القيم الدينية والإنسانية كلها.

ومن جهة أخرى ينبغي أن نرسخ في أذهان الناشئة أن الظالم والمعتدي ممقوت ومحارب مهما كانت ديانته أو عقيدته، وأن التعامل بالولاء مع دائرة المسلمين، وبالحوار والإصغاء مع المسالمين من كل الملل والنحل ومساكنتهم ومعايشتهم، بل والدفاع عن قضاياهم العادلة، من صميم الواجبات الشرعية، وأن تعاون الفئتين ضد الغاصب الظالم الجاحد المعتدي لهو الموقف السليم الذي يحفظ للبشرية استقرارها، كما دعت إلى ذلك كل الشرائع المكونة لرسالة الإسلام، وكل القيم الإنسانية النبيلة.

بهذا المنطق ينبغي أن ينظر المتعلمون إلى دور الدين في الحياة،

كطاقة محركة في مسيرة التنمية البشرية، وكحافز دافع حين يخلوا من التعصب المقيت، وكبناء للفكر السليم حين يبنى على الحوار والإقناع، وكدعوة إلى المحبة والسلام وكف الأيدي حين تسود قيم العدل والنبل والوفاء والحرية، وكرادع قوي لكل صور الشطط والظلم والعدوان حين تنتهك الحرمات. وبعد ذلك ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(الكهف:٢٩).

إن هذه المنهجية في التفكير التي تستهدف إزالة العوائق التي تحول بين المرء وعقله، والتي أملاها هذا الموقف الطريف مع الطالبة المغربية ذات الديانة اليهودية، كان بالذات هو مقرر السنة الدراسية بكاملها مع استعراض نماذج وقضايا للنقاش، تنمي لدى الطلبة القدرة على التفكير والنقد والتحليل والتمييز والتصنيف واتخاذ القرار. فكلما كانت هذه القدرات متوفرة لدى الطالب، وكلما بنيت الثقافة الإسلامية لديه على هذا الأساس، كان أكثر ثقة في نفسه وفي ثقافته، وأكثر إقداما على مناقشة الفكر الآخر بروح من الاعتدال والمسؤولية وطلاقة وجه.

بقي أن أقول في الختام أن الطالبة بعد حصتين أو ثلاث من التردد جاءت تمشي على استحياء، وولجت الفصل ثم كانت من أكثر المواظبات على حضور حصة الثقافة الإسلامية، لأنها وجدت غير ما كانت تتوقع. وفي فترة الاختبار الشفوي قالت في خجل ظاهر: "هكذا ينبغي أن نقدم ثقافتنا المغربية إلى العالم". فقلت لها: "لو أتيحت لي الفرصة للاطلاع على الثقافة العبرية لما ترددت لحظة واحدة في القبول، لأن ثقافة الذات تتعزز كلما تلاقحت بثقافة الآخر، وكلما بنيت على النقد والحوار". قالت: "أشكرك مرة أخرى" وانصرفت. ولا زالت تربطني بها وبزوجها علاقة احترام كبيرة منذ ذلكم الحين، في حين اختفت علاقتي بباقي طلبة فوجها في شعاب الحياة.

تأملت مسيرة سنة دراسية تحوّل فيها الفكر من الرفض إلى قبول الحوار والتفكير الناقد، فتمنيت لو سمح الوقت بأكثر من ذلك، ولكنها مسيرة مستمرة لا يحدها زمان ولا مكان. وترسيخ مثل هذه الثقافة في اعتقادي، هو المدخل الطبيعي للعودة مجددا إلى حركية التفكير التي آمل أن تسود لدى جميع الطلاب، ومن خلالهم إلى جميع المتعلمين لأن من لا يفكر لا ينتظر منه إلا أن يلقن. وتلك مذبحة المعرفة ونبع الانغلاق. ■

(*) رئيس المركز المغربي للدراسات الأبحاث التربوية الإسلامية / المغرب.

في فلك الغربة

يا أرضاً في الغربة غاصت،
وعن مداراتها تاهت،
وبحرَ التيه مع أناسيّها سلكت،
إلى أين تمضين، وأيَّ عالَم تريدين؟
عودي، وبماء الطهر اغتسلي،
وفي مدارك الحق اسلكي،
وممراً لجنان الخلد كوني...

* * *

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com





قصة الحياة

بين الدلائل الإيمانية والنظريات العلمية

جمال الحوشي*

إذا نظرت إلى السماء في الليلة الصافية لربما ظننت أنك تستطيع أن ترى ملايين الملايين من النجوم، ولكنك إذا ما عمدت إلى عدِّها تبين أنك لا تستطيع أن ترى سوى ما يقرب من ثلاثة آلاف نجم فقط بنظرك القاصر. ولو استخدمت منظارا فلكيا مكبرا من الحجم المتوسط لأُصِبت بالدهشة والذهول مما ترى.

إن هذا الأفق المحدود الذي تراه فوقك، ما هو إلا قطرة صغيرة جدا في بحر الظلمات الذي تسبح فيه بلايين النجوم والكواكب السيارة. ويكفي أن ندرك أن المسافات بين هذه النجوم المسبحة بحمد خالقها، تبلغ من الضخامة والاتساع حدًّا يفوق الخيال، لدرجة تجعلنا عندما نعبر عنها بالأميال نظل نردد لفظ ملايين الملايين، مما حدَا بعلماء الفلك إلى قياس هذه المسافات الهائلة بالسنين الضوئية التي يتم تقديرها بالمسافة التي يقطعها الضوء في سنة واحدة من سنوات الأرض، مع العلم بأن الضوء يقطع في الثانية الواحدة فقط مسافة ٣٠٠ ألف كم تقريبا، فكيف لو علمنا أن هناك من النجوم ما يبعد عنا عدة آلاف ملايين السنين الضوئية؟! فماذا تمثل الأرض بعد ذلك في ملكوت هذا الكون العظيم؟ إن هي إلا جُسَيم أمام هذا الزخم الهائل من النجوم والكواكب السيارة. ثم ما حجم هذا الإنسان نفسه بعد ذلك؟

إن علماء الطبيعة –على اختلاف تخصصاتهم– ينتهون إلى حقيقة وحيدة دائما، ألا وهي الإيمان بوجود خالق مدبر لهذا الكون المُحكَم، وتتغلب في النهاية الفطرة الإيمانية من جرّاء النظر في ملكوت هذا الكون الفسيح. وكل ما يحدث في هذا الكون الفسيح، وجميع المتغيرات والثوابت التي ترسم لوحة الحياة في النهاية، ما هي إلا أسباب طبيعية مقدرة تسير وفق سنن الله تعالى وتقديره في هذا الكون. وليست هناك ظاهرة –أو ظواهر– تخرق هذه السنن أو تحيد عنها، لأن من أبرز سماتها

الثقة والنظام والثبات. وكل ما بين أيدينا ليس إلا وصفا للكون في حالاته المختلفة، وبحثا في ظواهره الموجودة. وكثير مما ليس في أيدينا حتى الآن لا يزال بابا لمزيد من البحث ومزيد من التأمل والنظر الذي يقود بدوره إلى مزيد من اليقين والإيمان بخالق هذا الكون سبحانه، وهذا يكفي لنعرف مكمن الخلل في كثير من النظريات "العلمية" التي حاولت تفسير ظواهر الكون من حولنا بمنأى عن الإيمان، ولا تزال -حتى الآن- تدرس في العديد من جامعات المسلمين ومعاهدهم "العلمية!" مثل فكرة "الكون العملاق" التي جاء بها الفلكي الفيزيائي "أندر ليندا" ومن جاء بعده، وفكرة "الكون الذكي" التي نادى بها الفلكي الإنجليزي "فرد هويل"، والعديد من الأفكار والنظريات الأخرى. وهذا ما يؤكد ضرورة التركيز على الحقائق الإيمانية التي يجب أن تصطبغ بها دراسة العلوم الكونية، ويظهر الخلل الناجم من جرّاء دراسة العلوم الكونية المختلفة بعيدا عن هذه الحقيقة.

توظيف العلم في معرفة الخالق

إن منهج الدراسات العلمية في معاهدنا ومدارسنا الإسلامية يجب أن يتحرر من عقدة النقص التي أمْلت عليه طويلا القبولَ بنظريات سميت بـ"العلمية" مع كونها لا تتفق مع أبسط قواعد التفكير العلمي، فضلا عن الحقائق الكونية والشرعية التي جاءت بها نصوص الوحي وامتلأت بها شواهد الكون والأنفس والآفاق. إن المعرفة العلمية الحقيقية المبنية على الصدق واليقين يجب أن تنطلق من هدفها الجوهري، ألا وهو تحبيب الخالق ﷻ إلى عباده، ومن خلال هذا الهدف تصاغ سائر الأهداف الأخرى في مناهجنا العلمية الإسلامية -بشقيها الشرعي والكوني- مع ضرورة التفكير في مفردات المحتوى الذي يحقق هذا الهدف بصورة أكثر جدية، وبطرح علمي أكثر أصالة.

إن منهج التركيز على الدلائل الإيمانية في المحتوى العلمي خاصة، أصبحت ضرورة في هذا العصر أكثر إلحاحا من أي وقت مضى، بالنظر للغائية العلمية المجردة التي أصبحت تقدم بها النظريات العلمية الوافدة من الغرب، وفي غياب الطرح العلمي الجاد الذي يمكن أن تصاغ به نظريات علمية أخرى تستند على الإيمان الصحيح والتفكير الصحيح في حقائق الكون والأنفس والآفاق.

وهكذا فإن الاهتمام بتحقيق توحيد المعرفة بالخالق ﷻ من خلال الحديث عن آلاته ومظاهر قدرته وآثار رحمته سبحانه، والتوظيف العلمي الدقيق للدلائل العلمية الكثيرة يستلزم التأكيد على أنه أصبح ضرورة يجب التأكيد عليها في مناهجنا المعاصرة ولازم من لوازم إصلاح العبادة والقصد.

الملاءمة بين الحقائق الإيمانية والعلمية

والتفسيرات العلمية للظواهر والحقائق الكونية المشاهدة يجب أن تعتمد على الملاءمة بين ثنائية الحقائق العلمية الثابتة والإيمان الصحيح لمواجهة تلك النظريات المادية التي لم تفتأ تقدم العلم -وبخاصة علم الحياة- جافًّا منزوعا من غايته الحقيقية التي لا يمكن أن يفسر بمعزل منها. وبهذا تتحدد المعالم الحقيقية عند التأمل في قصة الحياة التي تظهر ألوانها الحقيقية في منظومة متكاملة من الروعة والإبداع والجمال، مع منظومة أخرى من الإيمان والمحبة واليقين لهذا الخالق العظيم سبحانه، ولك أن تتأمل -بعد أن تستقر بداخلك هذه الحقيقة- في كل ما يحيط بك من مظاهر الحياة، إنها سوف تقودك بالتأكيد للحقيقة ذاتها. هكذا يظهر الكون من حولك، عالم واسع ممتد يمتلئ بالغموض. كلما غرقتْ فيه آلات البشر الضعيفة وَسَبَرَتْهُ تقنياتهم المتواضعة، وهو مع ذلك محكوم بدقة متناهية ويسير في نظام إلهي رائع يظهر لك جانبا من جوانب قدرة الخالق العظيم سبحانه.

إن هذا العالم الهائل المحيط بنا، بل والعالم العجيب في داخلنا شاهد على عظمة الخالق سبحانه وأثر من آثار قدرته ورحمته بالبشر، بل بجميع مخلوقاته الحية على سطح هذا الكوكب. ولنبحر سويًّا مع بديع صنع الله تعالى في الكون من حولنا، ولنطوّف في مظاهر كونية رائعة من آثار رحمته وعظمته سبحانه، ولنبدأ من محيط كرتنا الأرضية الصغيرة.

القصة تبدأ من هنا

هذا الكوكب العامر بالحياة، يشكل المأوى الوحيد الملائم للحياة لقرابة ستين بليونا من البشر ومئات البلايين الأخرى من الكائنات الحية الأخرى، دون سائر الكواكب في مجموعتنا الشمسية. إنه الكوكب الحي الوحيد، المليء بالروعة والإبداع والجمال، تتعدد فيه معالم الحياة المختلفة وتتنوع أشكالها. على قشرته الرقيقة تنتصب الجبال الشامخة، وفي أخاديده تجري الأنهار العذبة، وتنمو فيه الأشجار والغابات والمروج، وتتنوع فيها أشكال النباتات والثمار، وشتى أنواع الحيوانات والطيور. مع كل ذلك فإن الإنسان لا يعيش إلا على مساحة قليلة من هذه اليابسة التي

تشكل ٣٠٪ فقط من إجمالي مساحة الأرض الكلية، والتي يتعدد فيها المناخ وتتنوع الظروف البيئية، وتمتد خلالها الصحارى الجافة بظروفها القاسية لمساحات شاسعة. في المقابل تغمر المياه ٧٠٪ من سطح الأرض على هيئة بحار ومحيطات هائلة. وفي أعماق هذه المياه الزرقاء يظهر عالم آخر مليء بالحياة والإبداع والجمال. إن مظاهر هذه الحياة الرائعة التي تمارسها الكائنات الحية، لا تتجاوز سطح القشرة الرقيقة للكرة الأرضية التي تشبه إلى حد كبير قشرة البرتقال، فإذا ما جاوزناها وتوغلنا في أعماق الأرض أكثر، تجلت لنا آية أخرى من آيات القدرة والإحكام في الخلق.

لقد تمكن الإنسان -بعد دراسة الذبذبات الزلزالية أو موجات السيزميك- من التعرف على باطن الأرض أكثر من أي وقت مضى. واستطاع من خلال دراساته المتواصلة أن يكتشف أن مادة الأرض في الأعماق ليست صلبة وإنما شبه سائلة، تقع تحت طبقة عظيمة السمك يطلق عليها "ستار الأرض". وطبقة اللب هذه موغلة في الأعماق، إذ يبلغ طول قطرها نحو (٦٨٨٠) كم، مما يفوق طول نصف قطر الأرض كلها.

النظام الدقيق

إن صور الحياة المتعددة التي هيأها الله سبحانه في هذا الكوكب، لا يمكن تفسيرها بحال على أساس العشوائية أو المصادفة، لعجز البشر عن مجرد تفسير آلية حدوثها فضلا عن إدراك ما هو أبعد من ذلك، فالأرض عبارة عن كرة معلقة -في موقعها المحدد في الفضاء- وهي تسبح بدقة متناهية مع سائر الكواكب والأقمار في المجموعة الشمسية بنظام دقيق جدا لو تقدم قليلا أو تأخر قليلا لاختلّ نظام الحياة على سطح الأرض، فتتابع الليل والنهار وتعاقب الفصول الأربعة، محكوم بهذه الحركة الدقيقة التي بدأت منذ آلاف السنين في الزمن الذي لا يعلمه إلا الله ﷻ، ومع ذلك لم تتغير هذه الحركة أبدًا، بل لم يتقدم نجم أو كوكب عن مساره المحدد و لم يتأخر عنه، قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ۞ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۞ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(يس:٣٧-٤٠).

ومن آثار حفظ الله تعالى لكوكب الأرض أن أحاطه بغلاف جوي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة. وهذا الغلاف الجوي يمتد حول الأرض إلى ارتفاع كبير، ومجهز بدقة باهرة ليعمل عمل الدرع الواقي الذي يحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة القادمة إلينا من الفضاء، والمنقضة بسرعة هائلة تزيد على ثلاثين ميلا في الثانية الواحدة -أي ما يعادل ١٨٠٠ ميل في الدقيقة- ولولا حفظ الله ﷻ لما بقي على ظهر هذا الكوكب حياة تذكر بسبب هذه الشهب الحارقة. وهذا الحفظ الرباني نعمة عظيمة من جملة النعم التي امتن الله ﷻ بها على الإنسان بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء:٣٢). ويدخل في معاني الحفظ التي أودعها الله سبحانه هذا الغلاف الجوي، حفظ درجة الحرارة على سطح الأرض في الحدود المناسبة للحياة. ويكفي أن نعلم أنه لو تغيرت كثافة الغلاف الجوي عن درجته الحالية أو اقتربت الأرض قليلا باتجاه الشمس أو ابتعدت عنها قليلا، لحدثت تقلبات فلكية مروعة تهدد الحياة بأسرها على سطح الأرض. وهكذا الشأن لو كان حجم الكرة الأرضية أكبر مما هو عليه الآن، أو أصغر من ذلك.

جيراننا في الفضاء

الحديث عن الحياة على سطح هذا الكوكب الأخضر يقودنا للحديث عن الشمس، في النار الهائلة التي يضطرم بها نجمنا البعيد المسبح بحمد ربه في ملكوت خالقه العظيم. وكرتنا الأرضية بعيدة عن هذه الكتلة المستعرة من اللهب إلى حد يكفي لأن تمدنا بالدفء الكافي، لا بأكثر منه ولا بأقل. ولو افترضنا أن درجة الحرارة على الكرة الأرضية قد زادت بمعدل خمسين درجة في سنة واحدة أو نقصت بمقدار خمسين درجة، لماتت جميع النباتات وجميع الحيوانات بما فيها الإنسان نفسه حرقا أو تجمدا. وبطبيعة الحال فإن الشمس -مع كونها أقرب النجوم إلى الأرض- إلا أن ضوءها يستغرق ٨,٥ دقائق ليصل إلينا.

إن الشمس -التي جعلها الله تعالى مصدرا لكل أنواع الحياة على سطح الأرض- ليست سوى كرة مستعرة من الغاز تبتعد في الفضاء مقدار ٨٣ مليون ميل، وحجمها يعتبر متواضعا بالنسبة للنجوم الأخرى، مع أن قطرها يعادل طول الخط الذي يمكن أن يستوعب صفًّا من الكرات المتتابعة عددها ١٠٩ كرة، حجم كل واحدة منها يساوي حجم كرتنا الأرضية. ولولا حفظ الله تعالى بتقدير جاذبية الشمس العالية، ولولا التقدير البديع في المسافة الفاصلة بينها وبين كرتنا الأرضية، لكسا الأرض ظلام مع جليد

مقيم أو لهب متقد لا تقوم معه حياة. لكنها دلائل الرحمة العظيمة ومظاهر للحكمة الباهرة والتسخير البديع لهذا النجم الهائل الملتهب.

تنتظم حول شمسنا الساطعة سائر كواكب المجموعة الشمسية الأخرى التي لا تشمل كرتنا الأرضية بينها سوى قطرة صغيرة في لجة محيط هادر. ويكفي أن نعلم أن أقرب النجوم الخارجية إلى مجموعتنا الشمسية، يبعد عن كوكبنا الأرضي ما يعادل ٣٠ ألف مرة قدر بعد الشمس. ولذا لا نكاد نراها إلا على هيئة نقط من الضوء تظهر تارة وتختفي أخرى، مهما بلغت قوة تكبير المنظار الفلكي الذي نستخدمه، على الرغم من أن بعضها يبلغ حجمه مئات آلاف حجم الشمس. وفي الأفق البعيد تومض نجوم أخرى موغلة في أعماق هذا الكون الفسيح، مما لا يمكننا رؤيتها بأي حال من الأحوال بأجهزتنا الحالية. فسبحان الخلاق العظيم والمبدع الحكيم.

في خضم هذا البحر المظلم الهائل نلمح كرتنا الأرضية الصغيرة، يكللها لون البحر الأزرق موشح بالسحب البيضاء المتحركة، وأجزاء من اليابسة ذات اللون البني الداكن، يرافقها من بعيد قمرها الوحيد الرائع الذي يعتبر أقرب جار لنا في الفضاء. والقمر -تابع الأرض المخلص- من أصغر الأجرام السماوية، إذ يبلغ قطره ربع قطر الأرض فقط، أما كتلته فأقل ثمانين مرة من كتلة الأرض، وهو من ألمع أجرام السماء بعد الشمس مع أنه لا يشع الضوء ذاتيًّا، وإنما يعكس أشعة الشمس.

ولطالما أعجب الإنسان بالقمر في أسفاره، وتغنى به في أشعاره، بل من سكان الأرض مَن عَبَده وقرّب إليه القرابين خوفا وطمعا، ومنهم من توجّس منه خيفة، مع أن هذا الجرم السماوي الصغير -كامل التكوير تقريبا- ما هو إلا كتلة من الصخر يدور حول الأرض بانتظام وثبات، والمسافة التي تفصل بينهما صغيرة نسبيًّا ولا تعدو ٢٣٨ ألف ميل. وهي المسافة الثابتة التي يذكرنا بها المد تذكيرا لطيفا في أيام معينة من العام، ولربما ارتفع المد -الذي يحدث في المحيط- إلى ستين قدما في بعض الأماكن بسبب جاذبية القمر تلك، فيما يمكن تشبيهه بتواصل الجيران مع بعضهم بعضا. ومن قارن ضوء الشمس الوهاج الحارق الذي يتناسب وطبيعة الحركة والحياة التي يمارسها الأحياء على هذا الكوكب في النهار، مع نور القمر اللطيف الهادئ الذي يغمر الأرض بشعور الأُنس والاطمئنان في غمرة الوحشة التي يكتنفها الظلام الدامس؛ من تأمل ذلك أبصر مشهدًا حيًّا في قصة الحياة على سطح هذا الكوكب العامر، وأدرك سرًّا بديعا من آثار رحمة الله ﷻ بعباده: ﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ۞ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(الأنعام:٩٥-٩٧).

الماء جوهر الحياة المتجدد

الحياة على هذا الكوكب الرائع لا تقوم -بعد إرادة الله ﷻ وتقديره- إلا من خلال نعمتين اثنتين هما أهم مدخرات الأرض، وسر نضارتها وحيويتها؛ الماء والهواء. وبدونهما تنعدم الحياة تمامًا. والعجيب أنهما لا يوجدان إلا في هذا الكوكب الحي، على الرغم من الجهود التي بذلت للبحث عن آثار وجودهما في الكواكب القريبة من الأرض.

لربما تساءلت يوما والمطر ينهمر فوقك بغزارة عن روعة هذا السائل اللطيف؛ الماء! كيف تفتقر إليه حياة كل شيء مع أنه في الوقت ذاته، سائل شفاف عديم اللون والرائحة والطعم. فأعجب من ذلك حقًّا كيف يحيي الله تعالى بهذا السائل كل شيء، مع أنه لا يملك من مقومات الحياة في الظاهر سوى هذه الصفات السلبية. ذلكم هو الماء الذي جعل الله ﷻ به قوام الحياة بكل مظاهرها، قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(الأعراف:٥٧).

لقد زود الخالق سبحانه كوكب الأرض باحتياجاته الضرورية من الماء عبر العديد من المصادر، في البحار والآبار والأنهار ومن خلال مياه الأمطار. وكون الماء متوافرا سهل المنال لكل الكائنات الحية مظهر عظيم آخر في قصة الحياة، وأثر من آثار رحمة الخالق ﷻ ولطفه بعباده، لدرجة أصبح فيها الماء أكثر السوائل غزارة على سطح الأرض. والعجيب في هذا السائل أن الإنسان لا يمكن أن يفقده بأي حال من أحوال التغير في درجات الحرارة. فهو إذا تجمد تحول إلى ثلج، وإذا تعرض لدرجة الغليان تحول إلى بخار. وهذا البخار بدوره يتخذ طريقه المقدور في علم الله تعالى إلى طبقات الجو، ثم يسافر محملا بالماء إلى مسافات بعيدة من الأرض، يدفعه الهواء برفق لتحصل البشارة به للعباد، ثم ينزل بعدها غيثا نافعا -بإذن الله ﷻ- على قوم، كما ينزل عذابا وهلاكا على آخرين. وقد شبه الله تعالى الأرض القاحلة التي تتلهف لنزول الغيث بالأرض الميتة الهامدة التي تدب فيها الحياة

شـيئا فشـيئا مع زخّات المطر الأولى، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(الأعراف:٥٧). ولولا ما أودع الله ﷻ في الماء من خصائص، لأصبحت الأرض جرداء خالية من كل أثر للحياة. إن الماء يروي لك قصة الحياة، ويشرح أثرا من آثار رحمة الله تعالى بمخلوقاته على هذا الكوكب الأزرق.

الدورة المائية البديعة

وللماء دورة حياة بديعة؛ فبعد هطول المطر يستقر جزء كبير منه في جوف الأرض على هيئة آبار، أو يجري على ظهرها في شكل بحيرات وأنهار، يصب بعضها مرة أخرى في البحار والمحيطات، ثم يحدث له التبخر مرة أخرى، لتبدأ بعدها دورة حياة جديدة. وهذا ما يضمن –بإذن الله العليم الحكيم– توازنا مُهمًّا على سطح الأرض، بحيث لا تتغير كمية المياه الموجودة في الكرة الأرضية وأجوائها، بل تنتقل من مكان لآخر ومن حالة لأخرى.

ومع كون الماء يغطي ثلاثة أرباع مسطح الأرض، ويؤثر تأثيرا بالغا على الجو السائد ودرجة الحرارة، إلا أنه ظل –ولا يزال– يحير العلماء في خواصه الكيميائية الفريدة، وبخاصة أولئك الذين يستخدمون الجدول الدوري للعناصر، الذي وضعه العالم الروسي "مانداليف" بقصد دراسة التفاعلات الكيميائية، والتعرف على خواص العناصر والمركبات. فما الذي يجعل الماء الذي يبلغ وزنه الجزيئي ١٨ سائلا تحت درجة الحرارة المعتادة والضغط المعتاد، مع أن المفترض فيه أن يتحول مباشرة إلى غاز، مثله مثل غاز النشادر، وغاز كبريتود الهيدروجين المتقاربين مع الماء في وزنهما الجزيئي! ثم ما الذي يبقي الماء سائلا فترة طويلة من الزمن، مع أن له درجة ذوبان مرتفعة وله حرارة تصعيد بالغة الارتفاع؟! ولولا هذه الخصائص العجيبة للماء –بعد تقدير الله الحكيم– لحدثت التقلبات العنيفة، ولتضاءلت صلاحية الأرض للحياة، ولقلّت متعة النشاط الإنساني فيها.

إن السر البديع في تركيب الماء، يكمن في خواصه الكيميائية الفريدة، وخواصه الكيميائية تظهر بجلاء في المناطق الجليدية التي يكون الشتاء فيها قارسا وطويلا. ذلك أن الماء يمتص كميات كبيرة من الأوكسجين عندما تكون درجة حرارته منخفضة. وهو المادة الوحيدة المعروفة على سطح الأرض التي تقل كثافتها عندما تتجمد، ولولا ذلك لغاص الجليد إلى قاع المحيطات والبحيرات والأنهار تدريجيًّا بدلا من أن يطفو، ولاستقر في الأعماق كتلة صلبة لا سبيل إلى إخراجها أو إذابتها، ولتعذر مع ذلك وجود أي نوع من أنواع الحياة المائية في المناطق القطبية. والجليد عندما يطفو فوق سطح الأرض فإنه يكون طبقة عازلة تحفظ الماء الذي تحته في درجة حرارة فوق درجة التجمد، وبذلك تبقى الأسماك حية وكذلك سائر الحيوانات المائية. ومعلوم أن الماء من أكثر السوائل المعروفة إذابة لغيره من الأجسام، كما أنه يلعب دورا كبيرا في حياتنا بوصفه مركب أساسيّ من مركبات الدم.

هكذا إذن تبدو لنا فصول من قصة الحياة، في مشاهد أخرى من محيط كوكبنا الصغير الذي جعله الله ﷻ لنا مستقرًّا ومتاعا إلى حين، وهيأ فيه من معالم الحياة المتعددة ما تعجز عن وصفه عقول البشر وتحار في تفسيره نظرياتهم العلمية. وتبقى حقيقة واحدة؛ حقيقة يتفق عليها البشر جميعا مهماحادوا وجحدوا، ومهما توغل العقل البشري في ماديات العلوم، وأغرق في فلسفات الأفكار، وخرج بالنظريات الملحدة الشاذة التي يحاول بها تفسير الكون بعيدا عن الإيمان. حقيقة يجدها المتأمل في مظاهر الحياة المتعددة في هذا الكون المنظور، ويجدها الناظر في الأفلاك السابحة في الفضاء عبر مرصده الفلكي الضخم، كما يجدها في قطرة الماء التي تمتلئ بحياة أخرى فريدة تحت عدسات مجهره البسيط. إنها الحقيقة التي يستدل بها الإنسان على آثار رحمة ربه ومظاهر قدرته وحكمته في كل ما يحيط به: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ۞ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۞ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(الأنبياء:٣٠-٣٣).

إن التفكر الصحيح المبني على المشاهدة والتأمل والنظرة العلمية الصادقة، يوصل صاحبه إلى الطريق الصحيح الذي يوقظ في داخله جذوة الإيمان، ويوقفه على آلاء خالقه –جل وعلا– وعظمته وآثار رحمته وقدرته سبحانه في كل شيء يحيط به. ■

(*) مدير تحرير مجلة "مكة" / المملكة العربية السعودية.



عباقرة الحضارة الإسلامية

د. كنعان كوج أوغلو*

أشرقت شمس الإسلام وسطع نوره على وجه الأرض، وبدأ يطلق أسس ومبادئ رسالته العظيمة السمحة التي ترفع الإنسان وتجعله يتعالى في درجات الكمال أو يبلغ درجة العُلا في سلّم التطور. لقد حث الإسلام على العلم والمعرفة، لما لهما من شرف المكانة وعظيم المنزلة، ورغّب فيهما وشجّع على سلوك سبيلهما. وبفضل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي بعثت في النفوس الرغبة في نيل العلم، تأسست مدنية إسلامية خلال عامي (٨٠٠-١٥٠٠) متطورة في جميع الميادين. فراح باحثون وعلماء غربيون يتدفقون إلى المراكز العلمية في العالم الإسلامي لكي ينهلوا العلوم من أصحابها. وما لبث أن قاموا بترجمة مؤلفات علماء مسلمين، مما جعلهم يشتهرون في العالم الغربي كمكتشفين ومخترعين. وذلك لعدم حياد الغرب ثم لقيام بعض الفئات في البلاد الإسلامية بستر هذه الحقائق وإخفائها. فقد نسب الكثير من مكتشفات علماء الإسلام ومخترعاتهم إلى علماء الغرب، وأُشيع بأن "الإسلام يمنع التقدم" كحرب نفسية ضد المسلمين. وكما سنبيّن فإن الفضل في العديد من المكتشفات والمخترعات يعود إلى علماء المسلمين.

الطائرة والطيران: من المعروف أن إخوان "رايت" استطاعا عام ١٩٠٣ تحقيق حلم الإنسان في الطيران. بينما حدثت التجربة الأولى في الطيران -في الحقيقة- في الأندلس في عام ٨٨٠، من قبل العالم الأندلسي المسلم "عباس بن فرناس" الذي صنع آلة تشبه طائرة دون محرك، حيث أضاف إليها ريش الطير وغطاها بقماش. ويشير بعض المؤرخين الغربيين من أمثال البروفيسور الدكتور "فيليب حتي" والدكتور "سيجرد هونكه" إلى تجربة الطيران هذه، ويعدون تلك الآلة أول آلة طيران.

النظم الآلية البخارية: تشير العديد من المصادر إلى أن أول منظومة آلية بخارية اخترعت من قبل المهندس الإرلندي "جيمس واط" (١٧٣٦-١٨١٩). بينما نرى أن "الجزري" رسم قبل ٦٠٠ سنة في كتاب له، ما يشبه جهازا بخاريا آليا (أوتوماتيكيا)، حيث استعمل الجزري في رسمه هذا ولأول مرة، الصمام الذي يعد عنصرا لا يستغنى عنه في أي وسيلة نقل يستخدم المحرك ويستعمل البخار أو البترول.

الغواصة الأولى: من الشائع أن فكرة صنع وسيلة نقل تسير تحت الماء، تعود إلى "ليوناردو دافنشي" (١٤١٢-١٥١٩). وفي سنة ١٦٢٠ حاول العالم الفيزيائي الهولندي "درابل" وكذلك حاول العالم الفيزيائي الفرنسي عام ١٦٥٣ في تحقيق هذا الأمل، إلا أنهما فشلا. ومن المعروف أن أول غواصة تم صنعها من قبل العالم الأمريكي "ديفيد بوشْنَل" عام ١٧٧٦، والواقع أن "إبراهيم أفندي" قام عام ١٧١٩، بصنع أول غواصة مصنوعة من الفولاذ تستطيع حمل الإنسان. واشترك هذا العالم بغواصته هذه في الأفراح التي أقيمت آنذاك بمناسبة ختان أحد الأمراء في إسطنبول.

كروية الأرض ودورانها حول الشمس: قام العالم المسلم "البيروني" (٩٧٣-١٠٤٨) الذي قرأ الكائنات في ضوء الآيات القرآنية، بتقديم حساباته العلمية إلى عالم العلم حول كروية الأرض ودورانها حول الشمس قبل "كوبرنيكوس" بخمسمائة عام. ولكن شبابنا لا يعرف هذا، لأن كوبرنيكوس قُدِّم إليهم على أنه هو المكتشف الأول في هذا الموضوع.

الدورة الدموية: الشائع في أيامنا الحالية أن "ميشيل سيرفيتوس" هو الذي اكتشف الدورة الدموية في القرن السادس عشر. بينما كان الطبيب المسلم "ابن النفيس" (١٢٠٨-١٢٨٨) قد رسم في كتابه منظومة الأوعية الدموية وأقسام القلب وحجراته بالتفصيل، وسرد وقدم المعلومات حول الدورة الدموية الصغرى والدورة الدموية الكبرى كلا على حدة.

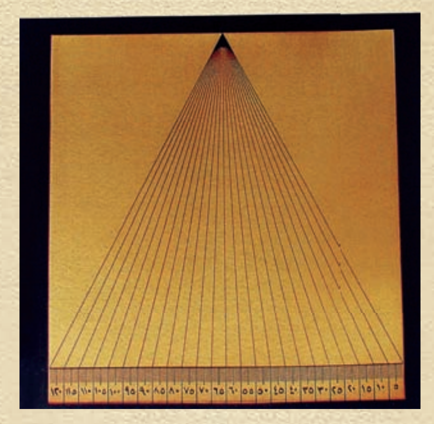
عملية التخدير الأولى: قيل إن "جونكن" قام عام ١٨٥٠ بأول عملية تخدير. ولكن الحقيقة أن عملية التخدير قد اكتُشفت وطبّقت من قبل العالم المسلم "ابن قرّة" (٨٣٥-٩٠٢). ولهذا العالم الذي ولد في بغداد بحوث عديدة ومهمة في الطب وعلم الفلك وعلم الميكانيكا.

الذرة: الشائع حاليا أن البحوث المتعلقة بالذرة بدأت من قبل العالم البريطاني "جون دالتون" (١٧٦٦-١٨٤٤). وأن فكرة إمكانية تجزئة نواة اليورانيوم طُرحت من قبل العالم الفيزيائي الألماني "أوتوهان" (١٧٧٩-١٨٦٨). ولكن الحقيقة هي أن العالم المسلم "جابر بن حيان" (٧٢١-٨١٥) الذي كان رئيس جامعة "حران" التي كانت تُعد من أكبر المراكز العلمية، سجل في كتاب له معلومات لا تزال تدهش رجال العلم الحاليين. فقد قال: "إن أصغر جزء من المادة وهو الجزء الذي لا يتجزأ (الذرة) يحتوي على طاقة كثيفة. وليس من الصحيح أنه لا يتجزأ مثلما ادعى علماء اليونان القدامى، بل يمكن أن يتجزأ، وأن هذه الطاقة التي تنطلق من عملية التجزئ هذه، يمكن أن تقلب مدينة بغداد عاليها سافلها. وهذه علامة من علامات قدرة الله تعالى".

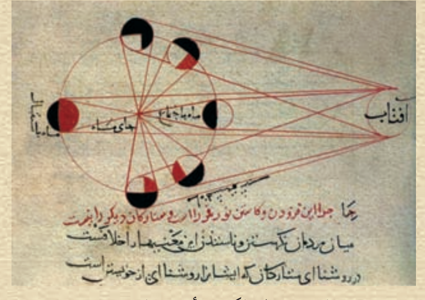
مرض السل وعلاجه: حتى خمسين سنة الماضية لم يكن يعرف علاج مرض السل الذي أودى بحياة العديد من الناس. والشائع أن العالم الألماني "روبرت كوخ" (١٨٣٤-١٩١٠) هو الذي اكتشف جرثومة السل وطرق علاج هذا المرض. ونظرا لهذا الاكتشاف المهم فقد نال هذا العالم جائزة نوبل في الطب عام ١٩٠٥. ولكن الحقيقة أن العالم العثماني "عباس وسيم بن عبد الرحمن" (تـ ١٧٦١) كانت له بحوث مهمة حول الجرثومة التي تسبب هذا المرض وحول طرق انتقاله وطرق علاجه. وأثارت بحوثه هذه اهتماما كبيرا في أوروبا. وكان العلماء الأجانب يزورونه من حين لآخر.

عملية إزالة عتمة عدسة العين (Cataract): الشائع أن "بلانكت" هو أول من قام بعملية لإزالة عتمة عدسة العين في عام ١٨٤٦. ويشير القرآن الكريم إلى قصة يعقوب عليه السلام عندما ابيضت عيناه حزنا على يوسف عليه السلام. وأن عينيه رجعتا طبيعية بعد أن ألقوا على وجهه قميص يوسف عليه السلام. وانطلاقا من هذه القصة خطر على بال العالم المسلم


جداول هندسية للبيروني.


حسابات حول الفضاء للبيروني


إحدى الأجهزة البخارية الآلية للجزري


دوران القمر حول الكرة الأرضية للبيروني

"أبي القاسم عمار بن علي الموصلي" (٩٥٠-١٠١٠) الذي عاش في العراق وفي مصر، إماكنية إجراء عملية للعين وعلاجها من هذا المـرض. فكتابه "كتاب المُنتخب" الذي خصصه لأمراض العين، أصبـح أفضل مرجع في طب العيون في الغرب حتى القرن الثامن عشر. فإلى جانب الطرق العديدة في معالجة أمراض العيون، فقد قام بعملية لإزالة عتمة عدسـة العين باسـتعمال أنبوب مجوف.

وكما جاء أعلاه فإن المسلمين سـاهموا في إثراء العلوم التي تعد ميراثا للإنسانية ولاسيما في المدة المحصورة بين القرن الثامن والقرن السـادس عشر. وقد أشـار الكثير من المختصين بتاريخ العلوم من المنصفين في الغرب أمثال "جركو سـاتون" وبشكل مفصل، إلى إسـهام هؤلاء العلماء المسلمين في مجال العلم، حيث يذكـرون في كتبهم بأن "ثابت بن قره" هو أقليدس المسـلمين، وأن الخوارزمي سـبق في علم الجبر أقليدس بألف عام. ويقولون عن جابر بن حيان بأنه مؤسـس علم الكيمياء الحديث، وأن ابن الهيثم مؤسس علم البصريات ومؤسس علم الفيزياء التجريبـي، أما ابن سـينا فهو عندهم أستاذ الأطباء، و"الجزري" هو مؤسس الهندسـة الحديثة ومؤسس السيطرة الآلية. أما "أولوغ بك" فهو عندهـم عالم الفلك في القرن الخامس عشـر، والمعمار العثماني "سـنان" فيعدونه رئيس المهندسين والمعماريين، و"بيري رئيس" أعظم بحار في العـالم. ويقولون عن الرازي بأنه العالم الكيميائي الذي درّس الغرب. كما اسـتعملوا أوصافا جميلة أخرى حول العلماء الآخرين. وفي عـام ١٩٥٠ قرر اتحاد هيئة علماء الفلك إطلاق أسماء العلماء الذين سـاهموا في إغناء العلم على فوهات براكين القمر. فكان من بـين هؤلاء العلماء؛ ثابت بن قرّه، أبو الوفا، ألوغ بك، علي كوشـجو، جابر بـن حيان، ابن الهيثم، البيروني، ابن سـينا، ناصر الدين الطوسـي، البطّاني، الفرغني، البيتروجي، الزرقاوي والصوفي.

لقد أوردنا أعلاه بعض المكتشفات والمخترعات لبعض العلماء المسلمين قبل مئات الأعوام. ولا يُذكر هؤلاء العلماء ومكتشفاتهم في أغلب الكتب والمؤلفات، بل تُقدم على أنها مكتشفات علماء الغرب. وعندما نرى اليوم بعض شـبابنا يحصلون على نجاحات كبيرة في المباريات العلمية العالمية، نزداد إيمانا بأنه عندما تُقدم لهم الإمكانات، فإنهم سيساهمون في التطور كأجدادهم الأجلاء. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

الموضوع، الآلة أو الطريقة المستخدمة	العالم المسلم	العصر
آلة قياس الكثافة، معادلة الجيب التمام في الرياضيات، ومفاهيم القاطع والقاطع التمام وكذلك المعادلات المتعلقة بمساحة المثلث.	أبو الوفاء	٩٤٠-٩٨٨
تقطير البترول لأول مرة واستحصال النفط منه واستعماله.	أبو بكر زكريا الرازي	٨٦٥-٩٢٥
علم الإنسان الآلي الأول وعلم السبيرناطيق. واستعمال المرفق الآلي Crank الذي يحول الحركة المستقيمة إلى حركة دائرية.	الجزري	١١٣٦-١٢٠٦
الوصول إلى تعريف للجزء الذي لا يتجزأ (أي الذرة) ومعرفة أنه إن تم تجزئته تنطلق منه طاقة يكفي لقلب مدينة بغداد رأساً على عقب.	جابر بن حيان	٧٢١-٨١٥
القيام بتجربة صاروخ بطابقين وسبع أذرع يعمل بالبارود ويستطيع الطيران مسافة ٥,٢ كم.	لاغاري حسن جلبي	١٦٣٣
أول عملية جراحية للعين، واستعمال المصارين في خيط جروح العمليات، واستعمال الأدوية ضد الالتهابات الحاصلة بعد العملية.	أبو بكر الرازي	٨٦٥-٩٢٥
منع الصدأ في الفولاذ.	جابر بن حيان	٧٢١-٨١٥
حساب مدة دوران الأرض حول الشمس (التي تبلغ ٥٦٣ يوما و ٦ ساعات و ٦ ثوان بدقة، إذ توصلوا إلى هذه المدة بفارق ٨٥ ثانية فقط).	أولوغ بك	١٣٩٣-١٤٤٩
اكتشاف التسارع بسبب جاذبية الأرض وذلك قبل ٥٠٠ سنة قبل نيوتن.	الخازني	١١٠٠-١١٥٥
بحوث رائدة حول عملية الإبصار وبيانها تشريحياً وحول الغرفة المظلمة وعدسة العين وعن المنشور والمرايا والضغط الجوي وسمك الطبقة الجوية.	أبو الهيثم	٩٦٥-١٠٥١
طرح النظرية النسبية الخاصة والعامة، وذلك قبل آينشتاين بـ ١١٠٠ سنة.	أبو يوسف الكندي	٧٩٦-٨٧٢



حراء تشرق في اليمن السعيد

أ.د. عبد الحليم عويس*

في جنوب الجزيرة العربية تقع "اليمن السعيدة" التي اشتق اسمها من "اليُمن" وهو الرخاء والبركة؛ والتي تحدّها شمالا العربية السعودية، وجنوبا البحر العربي، وشرقا الخليج العربي؛ الذي يسمى أيضا بخليج فارس، وغربا البحر الأحمر؛ عاصمتها الأولى هي صنعاء، وتنطق "صنعا" بدون همز، والتي ترتفع عن سطح البحر بـ(٦٩٠٠) قدما، ومما قاله عنها في العصر الحديث المؤرخ أحمد فخري: "إنه ليس في مدن الشرق مدينة تشبه صنعا لنقارنها بها، فهي فريدة في موقعها، وفريدة في طراز بنائها، وفريدة في أسوارها، وفريدة في مظهرها الشرقي الخاص؛ الذي يجعل السائر في طرقها يحس بأنه انتقل بضع مئات من السنين، فيتصور نفسه في بغداد وفي غيرها من مدن الحضارة الإسلامية".

وتمتاز هذه المدينة بموقعها الجغرافي؛ فهي وسط وادٍ فسيح تحيط بها الحقول والحدائق التي تمدها بحاجتها من الغذاء والمرعى، وتحيط بها الجبال العالية؛ فيزيد ذلك في منعتها، ويجعل الاستيلاء عليها أمرا غير يسير، وجوّها معتدل طول العام؛ فشتاؤها غير قارس، وصيفها غير حار. وتعرف صنْعا باسم "مدينة سام" نسبة إلى "سام بن نوح"، ويقال إنها أقدم مدينة عمرت بعد الطوفان.

إن رائحة جغرافية الجزيرة العربية نافذة قوية في صنعاء.. فأنت تمشي في ظلال جغرافية جنوب الجزيرة أصل القحطانيين، بَيْدَ أن رائحة التاريخ، والعروبة والإسلام أقوى وأنفذ من كل روائح الجغرافيا والجيولوجيا، والأركيولوجيا، ولم لا؟! أليس سكان اليمن عربا أُصلاء يتكلمون اللغة العربية.. وأيضا أليست اليمن أصل الأنصار، هؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(الحشر:٩) بلى، إن اليمن أصل الأنصار أوسهم وخزرجهم، والأنصار شطر المسلمين،

وبدونهم ما كان يمكن أن تصنع في يثرب التي أصبحت مدينة رسول الله دولة الإسلام الأولى. فبحق إن الإيمان "يمانٍ"، وإن الحكمة "يمانية"... وقد تجلى الإيمان وتجلت الحكمة في دولة الرسول الأولى، دولة المؤاخاة بين قحطان وعدنان أو بين الأنصار والمهاجرين الذين قدَّموا معا أروع نموذج للدولة المؤمنة الحكيمة عبر التاريخ. وحسبها أنَّ قائدها وإمامها هو خاتم المرسلين محمد ﷺ، وأن "البشر" المكوِّنين لها هم خيرُ أمة أخرجت للناس، وهم الصفوة الذين حملوا الإسلام إلى العالم ونشروه بالحب والحكمة، والإيمان القولي والعملي.

لم تعرف اليمن حدة الصراع المذهبي، بل كانت دائما قادرة على إقامة كيانها الفكري على أساس المرجعية الإسلامية الأصيلة؛ في جو من التسامح والعفو والحب والتيسير.

دخلها المذهب الحنفي وغلب عليها. وبأدب جم انسحب الأحناف الرائعون، وأفسحوا المجال للمذهب المالكي.

ومع أوائل القرن الثالث الهجري دخل مذهب الإمام الشافعي -بحب ووفاء- فطوى تقريبا صفحة الآراء الفقهية السابقة، وأصبح المذهب الشافعي هو المذهب السائد، ومن ثم استطاع الإمام التقي الهادي يحيى الحسين الزيدي أن يدخل بفقهه إلى اليمن؛ معتمدا على "مجموع الإمام زيد الفقهي والأصولي" والذي اعتمد في حديثه على أبيه "علي زين العابدين"، وأخيه "محمد الباقر" رضي الله عنهما، فلم يك مذهبه شيعيا بالمعنى الشيعي المعروف؛ بل كان مذهبه منسجما مع فقه أبي حنيفة اعتمادا على ما كان بين زيد وأبي حنيفة من علاقة ودود، وقامت العلاقة بالتالي بين الزيدية وإخوانهم الشافعية على أروع ما تكون الأخوة، وعلى أفضل ما يكون التكامل والتسامح.

في أجواء عبق هذا التاريخ، الموصول بالجغرافيا، والملتحم بتاريخ العروبة، وحضارة الإسلام؛ ذهبنا إلى صنعاء ممثلين لأول مجلة عربية تصدر -بلغة القرآن- في تركيا بعد سقوط الخلافة العثمانية سنة (١٩٢٤).

إنها مجلة "حراء" التي يجاهد ناشروها الأبرار من تلامذة داعية عصره، حامل همّ المسلمين الأكبر "الأستاذ فتح الله كولن" -أطال الله عمره-؛ الذي ينأى بدعوته عن السياسة والساسة؛ هادفا إلى نشر بذور الإيمان، وتعهدها وسقيها، وإنضاجها، وترك ثمارها لمن عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو.

إن مجلة "حراء" ذات رسالة إسلامية ترتفع فوق القواطع والفواصل، فهي تخاطب كل المسلمين ولا تقف كثيرا عند آرائهم أو اتجاهاتهم الفقهية أو الفكرية ما داموا في نطاق الكتاب والسنة. إنها علمية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس وآفاق الكون بالمنظور القرآني، من أجل أن ترتفع بالإنسان المسلم إلى المستوى المعرفي والكوني الذي وضَعَهُ الله فيه منذ أن أمره بأن يحذوا حذو نبيه فيقرأ قراءة معرفية وكونية: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:١-٥)، فجمع الله بين القراءتين معا لكي يقع التآلف والتناغُم بين العلم والإيمان والعقل والقلب والفكر والواقع. ولهذا كان لابد أن تكون المجلة قرآنية الصبغة، عَصْريَّة الصياغة؛ جامعة بين الأصالة والمعاصرة، بمنهجية وسطية؛ لا تعتمد التلفيق بل التوفيق، ولا تقبل بالتصادم بل تجاهد في سبيل التكامل؛ بعيدا عن السكونية، وعن الإفراط والتفريط.

وهناك في صنعاء، ذات التاريخ الإيماني والحضاري العريق، وفي اليوم الحادي عشر من فبراير عام ٢٠٠٨ صبيحة يوم الاثنين، كان اللقاء في فندق "موفمبيك" في الساعة العاشرة والنصف صباحا، وفي ظل استقبال حار من الجامعات اليمنية بدءاً بجامعة صنعاء إلى جامعة العلوم والتكنولوجيا، إلى مسؤولين رسميين ومفكرين ومثقفين يمنيين.

نعم، كان اللقاء. لكنه لم يكن لقاء عاديا، ولم تكن مجلة "حراء" في هذا اللقاء مجرد مطبوعة تعبر عن الأصالة التركية الإسلامية والحضارة التي لا تنسى الوشائج بين العرب والترك، ولا تنسى أن بيننا الكثير مما يجمعنا، وأننا عشنا قرونا طويلة شركاء في سفينة حضارية واحدة بل كان الأمر أعمق من ذلك؛ فهو دعوة من العالم التركي إلى العالم العربي لعودة التواصل الحضاري انطلاقا من الثقافة والفكر والأمة... انتظارا ليوم تعود فيه أمة الإسلام قائدة للإيمان، حاملة راية الحب والتسامح والأخلاق إلى العالم بعد أن أوشكت سفينة القيم أن تغرق.

كان اللقاء رسالة بين عالَمين، وفتحا جديدا يعمق الحب بين قلوب -هنا وهناك- حاولت صروف الدهر أن تقضي على ما بينها من وشائج وأواصر ممتدة في التاريخ. كان عدد الضيوف من خارج اليمن قليلا يتمثل في الوفد التركي (حامل رسالة "حراء" والحب إلى اليمن) وعلى رأسه الأستاذ الكبير "مصطفى أوزجان"، والأستاذ "نوزاد صواش" رئيس تحرير مجلة "حراء"،



بالإضافة إلى عدد من الضيوف الأتراك يقتربون من عشـــرين ضيفا من بينهم الأستاذ "جمال تُرك" مدير أكاديمية العلوم بإســـتنبول، والأستاذ "شكري شاهين" مدير النشر بالقاهرة، وغيرهما...

ومن الضيوف غير الأتراك، من كتاب مجلة "حراء" الأســـتاذ الدكتور "عبد الحليم عويس" المفكر الإســـلامي، ورئيس تحرير مجلة التبيان/مصر، والأستاذ الدكتور "عمار جَيْدَل" (الجزائر) والأســـتاذ بجامعة الجزائر، وحضر اللقاء وزير الثقافة والإعلام اليمني ومستشار الرئيس للشئون الثقافية الشاعر والمفكر المعروف الدكتور عبد العزيز المقالح.



وتوالت الكلمات بإدارة الأســـتاذ "نوزاد صواش"، رئيـــس تحرير مجلة "حراء"، وتتابعت من الأساتذة بصنعاء فتكلم أ.د. داود عبد الملك الحدابي، وأ.د. سيد مصطفى ســـالم، ود. علي بن العجمي العشـــي، ودكتورة أمة الملك الثور، ود. محمد عبد الله المحجري، ودكتورة نجاة صائم خليل، والأستاذ حسين صالح علي البهجي...

كان الأستاذ نوزاد صواش ماهرا في إدارة الندوة، جامعا بين اللغة العربية الفصيحة والأصالة التركية، والدعابة العربية. كان يضفي على الجميع من أخلاقه، ويثني عليهم مستمدا خزينة حكمته ومعلوماته لكي يلبس كل واحد منهم الثوب الجميل اللائق به، وقد أدهش الجميع لتمكنه من العربية ودعاباته، وحسن تقديمه.



وكان شيئا بديهيا أن يكون الأستاذ مصطفى أوزجان، كبير الدعاة والمسؤولين في حقل النشاطات الدعوية والفكرية والميدانية في تركيا؛ أول من يتكلم بل ويمثل الجانب التركي ومجموعة قاينناق للنشـــر الثقافي التي تعد من أهم مجموعات النشـــر في تركيا، والتي تقوم بنشر مختلف الكتب وبمختلف اللغات وفي مقدمتها اللغة التركية والإنجليزية والألمانية والروسية والعربية، وغيرها من اللغات.

وفي كلمته التي ترجمها إلى الجمهور رئيس تحرير "حراء" أعلن الأســـتاذ "أوزجان" ســـروره بوجوده بين إخوانه في اليمن بلد الإيمان والحكمة، وأعلن ترحيبه بالجمهور الكبـــير الذي قبل الدعـــوة الكريمة، وبجهود أبناء اليمـــن في تذليل كل العقبات، وفي الإعداد لهذا الحفل الناجح بكل المقاييس. كما أعلن ثقته في مستقبل يقوم على التواصل الحضاري، وثقته في أن "حراء" ســـيصاحبها النجاح في كل الآفاق التي ترتادها مشيرا إلى أن نجاحات "حراء" تطرد منذ نشـــأتها في عام ٢٠٠٥ بإصدارها الفصلي، وذلك لما يلمســـه من تنام للوعي عند المسلمين، وأن من الضروري الاستمرار في تعميق هذا الوعي وانتشـــاره، وأن نفكر في هدوء دون أن نقـــع في ردود الأفعال، والتصرفات العاطفية التي قد تؤثر ســـلبا على رســـالتنا مؤكدا أن "حراء" تسعى دائما إلى تكوين مدرسة فكرية يلتقي فيها العقل والوجدان.



وفي تعليقـــه على كلمة الأســـتاذ "أوزجان" وجه "صـــواش" دعوة إلى أصحاب العقول النيرة والقلوب المستضيئة في اليمن والعالم إلى أن يودعوا صفحاتها كلمات من أقلامهم، وقال: إن "حراء" مجلتكم إنها مجلة العالم الإسلامي، وأبوابها مفتوحة لمن يريد الولوج إليها حتى تكون ملتقى للتقارب والتآلف، وجسرا للمحبة والتعارف؛ تستوحي المعاني العظيمة في رســـم الطريق إلى المعرفة الإيمانية التي تريدها لمسلم هذا اليوم، وهو ما تعمل "حراء" على أن تكرس له نفســـها، وما تحب من أصحاب الأقلام والقراء أن يعينوها عليه.





مصطفى أوزجان، رئيس الشرف لمجلة "حراء".

وفي كلمته قدم الدكتور "عبد الحليم عويس" مشـــاعره تجاه "حراء" واليمن، وأعلن ســـعادته بالتواصل الثقافي التركي اليمني، وذكر أن "حراء" قطعة منه؛ فقد عاش معها منذ ولدت وتألقت آفاقها الفكرية العلمية الإيمانية الوجدانية؛ منذ بدأت "حراء" تخطو خطواتها، وتتـــوالى أعدادها.. وتمنى على الله أن تصبح "حراء" مجلة شهرية واثقا من أنها ســـتقوم بدور فكري دعوي رائد حينما تتجاوز هذه العقبة وتصبح شـــهرية، وعندما تتجاوز شيئا من المبالغة في الشكل والإخراج فتصبح في متناول أكبر عدد من القراء.


أ.د. عبد العزيز المقالح، مستشار رئيس الجمهورية للشؤون الثقافية/اليمن

وبأســـلوب يجمع بين العلم والإحصاء والحب عرض لنسبة المقالات في ضوء اتجاهاتها الفكرية خلال أعدادها السبعة الأولى التي صدرت في نحو عامين، وأشار -بشيء من الدعابة- إلى أن نســـبة الأدب -شعرا ونثرا إبداعا ونقدا- هي أكبر نســـبة نظرا إلى أن رئيس التحرير أديب وأكاديمي في الدراســـات الأدبية، وكان طبيعيا أن يتحيز إلى الأدب، وجاءت الإســـلاميات بعد الأدب؛ بينما لم تتجاوز دراســـات التاريخ والحضارة وفلسفة التاريخ نســـبة ١١٪. وأشاد باهتمام المجلة بالعلوم ســـواء كانت علوما تكنولوجية أم نفســـية أم تربوية؛ لاسيما في معالجتها بالمنظور الإسلامي، كما أشار إلى إيجابية طرحها وتنوعه في الموضوعات، وارتفاع مستوى المعالجة، وتألق الروح الإيمانية التربوية في كلمات أستاذنا "فتح الله كولن" التي تتصدر المجلة، وحتى العلم -مع موضوعيته- يعرض بأســـلوب أدبي، وبروح إيمانية؛ فـــ"حراء" مائدة حافلةٌ متألقة روحا، مشرقةً أسلوبا، رائعةً إخراجا.


أ.د. عمار جيدل/الجزائر

وعندما جاء دور الأستاذ "عمار جيدل" الجزائري في الحديث أشار إلى حاجة العقل المســـلم إلى مجلة أو مأدبة -كحراء- تخاطب عقله وروحه معا غير متجاهلة لمنهجيـــة العلم، ولأعماق الأصالة ومقتضيات المعاصرة. ولم يقف الحفل عند هذه الكلمات، بل رافق هذه الكلمات تقديم فيلم مختصر عن "حراء" منذ ولدت فكرةً، وغرست بذرةً، واشتد ساعدها، وبدأت تعطي ثمارها الطيبة للإنسان المسلم عقلا وروحا وقلبا.


أ.د. عبد الحليم عويس/مصر

ومـــع نهاية الحفـــل تبودلت الأحاديث، وطرحت الآمـــال بين أكثر من مئتي مدعو من المثقفين والمفكرين والدعاة والمســـؤولين في اليمن. وكان الحفل تدشينا لموقـــع جديد تقتحمه "حراء" بالحب والتعاون والإخاء.. وقد تســـابق المدعوون إلى أن يأخـــذوا هداياهم من "حراء"، ومن بعض المنشـــورات الأخرى الدائرة في فلك "حراء"، وكلهم يريد أن يســـتوفي أكبر نصيب ليضـــع في بيته، وأمام أبنائه في اليمن الســـعيد إضافةً إيمانية تربوية تضيء له درب الحب الإســـلامي، وتصله بالعوالم الإســـلامية التي نتمنى أن نقول عنها ذات يوم: إنها عالم إســـلامي واحد، وإن قبلة المســـلمين الواحدة، قد أصبحت وحدها هي ما يرنون إليه استئنافا لعصر الرسالة، في زمن العولمة؛ عودة إلى المكان الحقيقي الذي اصطفاهم الله له؛ شهداء علـــى الناس، وأيضا، وبـــإذن الله وعونه ومن جديد خير أمـــة أخرجت للناس.


أ.د. عبد الملك الحدابي/اليمن

وقد أرسل الأستاذ المربي والعالم المفكر محمد فتح الله كولن رسالة تهنئة جمعت بين الفكر العميق والدفء والشوق. وفيما يلي نص الرسالة:



رسالة الأستاذ فتح الله كولن



بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات السادة الأفاضل، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

إننا نشعر بالغبطة والسرور، إذ نجد أنفسنا بين أحضان أهل اليمن الكرام. تماما كشعور الأخ الذي وجد أخاه بعد ضياع لزمان طويل، فلصلة الرحم الآن لهيب من المحبة الغامرة، والشوق القديم.

ولقد وجدنا اليمن وأهله كما حدّث عنهم التاريخ، أهلَ كرم وجود وحضارة أصيلة ومحتد أثيل، وما يزال اليمن ينتج الرجال والفحول، و لم يزل أهله يزودون العالم بأخلاقهم النبيلة، فيسهمون في نشر الدين الحنيف تبعا لمسلك أخلاق أجدادهم من الصحابة والتابعين. كان الرضا الإلهي هنا ينبض بالكرامات منذ أن أشرق النور في قلب أويس القرني إلى أن نبت جيل هذا العصر الجديد، فكم من شعوب أسلمت بالنظر إلى خطاهم والاستماع إلى منطقهم الحكيم.

أيها الحضور الكريم..

إن حبنا لأهل اليمن أصل أصيل، فمنذ زمان انطلقت قلوب من بلاد الأناضول تسعى إلى الدفاع عن أرض اليمن السعيد يقودهم حب إخوانهم ونصرة أحبتهم وواجب دينهم، جاؤوا من أقصى الأرض يسعون كما جاء رجل من أقصى المدينة يسعى، فارتقى في مراتب الخلود عند رب العالمين. والآن جئنا لنجدد العهد ونصل ما انقطع بالكلمة الطيبة وبالحوار والمناجاة على صفحات مجلة تطلب ضيافتكم وتسعى إلى التزود من حبر أقلامكم والتضلع من مداد أفكاركم، فقد شهد لكم الرسول عليه الصلاة والسلام بالحكمة البالغة حيث قال: "الإيمان يماني، والحكمة يمانية". فهذه مجلة حراء تمد أيديها لكم بحرارة عسى أن تجد من بينكم من يصافحها بكل ذلك، وقطعا لن يخيب ظنها، فأنتم أنتم كما شهد لكم رسول الله ﷺ.

إن قلبي -أيها الأحبة- ليختلج طربا من الشوق إلى لقائكم والتملي بالنظر إلى وجوهكم، ولكن إذا عجز الجسد عن حضور مجمعكم، لموانع مما لا طاقة لي بدفعه من قدر الله، منها المرض وغيره مما الله به عليم، فإن الروح قد وصلت مع أول طليعة من إخوانكم من إسطنبول تطرق بابكم. إنني من مكاني هذا أشاهد بقلبي مجلسكم وأسمع حواراتكم وأتلذذ بجمال اللقاء كمن هو حاضر بينكم تماما. وإنني إذ أعلم حفاوتكم الكبيرة بإخوانكم الوافدين كحفاوة الأنصار بالمهاجرين فإنني أضع بين أيديكم وبين جوانحكم أمانة هي سبب من أسباب التواصل بين أفراد الأسرة الواحدة الذين فرقت بينهم المسافات الزمنية والجغرافية... مجلة حراء... ذلك أن الكلمة المكتوبة لم يزل لها شأنها الذي جعله الله لها ولن يزال أبدا، يجدد التاريخ ويستأنف سير الحضارة، لا ينافسها في ذلك شيء، مهما تطورت وسائل الإعلام الجديدة، إن الكلمة جزء من قدر الله العظيم، تفعل فعلها بأمره سبحانه، فلا يهزمها شيء ألبتة مذ حكم ﷻ بذلك في قوله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾(القلم:١)، وما مجلة "حراء" إلا قبس من نور القرآن الكريم، كتاب الله الجامع لهذه الأمة، الرابط لها بأصلها، والضامن لوجودها حاضرا ومستقبلا.

إن العالم الإسلامي -كما تعلمون- قد مزقته الرياح والجراح في كل مكان، فلا قطر منه إلا وهو يعاني من نزيف مستمر، لكننا واثقون بوعد الله العظيم في أن الآلام تلد الآمال، وإن صلة الرحم وتجديد التواصل بين الأحبة والإخوة في كل مكان في هذا العالم لهو السبيل لبذر حبة الحياة في تربة أمتنا، عسى أن نستنبت شجرة لشرايين الحياة فيها.

هذا، وإننا لنقدم مجلة حراء بادرة لبدء السير في هذا المسعى المبارك وفتح ثغرة في الطريق المسدود، وإننا لموقنون بذلك، لأن كلمة الله سبقت بقضائه نصرة لرسله وأتباعهم إلى يوم القيامة، ذلك أنهم أخلصوا في السعي إلى رفع ألوية المحبة والسلام ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾(الصافات:١٧١-١٧٢).

بارك الله في مجمعكم.. وزكّى حواراتكم.. وجعل كل كلمة من كلماتكم الطيبة ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾(إبراهيم:٢٤-٢٥).

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. ■

(*) أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية / مصر.

النُّورُ الخَالِدُ

مُحَمَّدٌ ﷺ

مَفْخَرَةُ الإنسانيَّة

بقلم فضيلة الأستاذ فتح الله كولن

- جولة مباركة في آفاق السيرة بعقل المؤرخ ومعية الروح والوجدان.
- الوقوف عند المنعطفات الكبرى في السيرة وإشباعها فحصا ودراسة.
- التوكيد على التوافق بين سنته عليه السلام والسنة الكونية والحياتية.
- التوكيد على شمولية الإسلام من خلال معطيات السيرة، وأنه دعوة عالمية تخاطب الإنسان في كل زمان ومكان.



في فجاج الأرض هيا امضِ،

وغراسَ الحياة هيا احمل،

وإلى خطى الموت لا تنظر،

والحياةَ في قلب الموت فازرع،

فإنك لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً.

* * *

تركيا: ٥ ليرات • أوروبا: ٣ يورو • أمريكا: ٤,٥ دولار

